الجزء الأول

جان جاك روسو

١

ولد جان جاك روسو بمدينة جنيف من أعمال سويسرا فى ٢٨ من يوليو سنة ١٧١٢ من أبوين من أواسط الناس هما إسحاق روسو صانع ساعات وسوزان برنار ابنة رجل أنعم من زوجها حالاً ويشتغل بمهنة التعليم . ولقد كان رابع جد لروسو لأبيه من باعة الكتب فى باريس ومن بين الذين اضطرتهم الفظائع والاضطهادات الدينية التى شهدها القرن السادس عشر ليهجروا فرنسا . أما جده لأمه فكان راهباً بروتستانتيًا ممن احتموا فى الجمهورية السويسرية من اضطهاد الكثلكة فى ذلك العهد . وقد قضى ميلاد جان جاك على حياة أمه فبعث وتها إلى نفس أبيه أكبر الحزن والأسى . ذلك لما كان بين الزوجين من حب لا يكاد يتصوره العقل . حب نشأ معهما حيث بدأ وكلاهما فى التاسعة من عمره ثم نما وتجسم وبلغ حد الهيام حتى اضطر إسحاق للسفر طلبا لنسيان فتاة زاد منعها تفوق مركزها عليه عن الارتباط معه برباط الزوجية . لكن سفره لم يزده إلا هياماً ولوعة . ورجع فوجد محبوبته على عهده ووجد أخا سوزان قد علق أخته هو وطلبها لنفسه فطلب إسحاق يد سوزان مقابل أخته وهكذا تم زواجهما .

وكانت سوزان جميلة حية أديبة وموسيقية محاطة بالمعجبين إلى حد جعلها برغم طهرها منظورا إليها فى مدينة (كالفن)[1] بعين الشك . أما إسحاق فكان صانع ساعات ومعلم رقص خفيف الروح خيالى الطبع ميالاً إلى الكسل كثير المشاغبة . ولقد رزق منها ولداً بعيد زواجهما ثم اغترب إلى القسطنطينية ليكون صانع ساعات فى سراى السلطان كما يقول جان جاك أو عامل ساعات لسكان بيريه البروتستانتيين فى رأى أوجين ريتر . وبقى هناك ست سنوات (من ١٧٠٥ إلى

---

(١) كالفن أحد مؤسسى البروتستانتية ومدينته جنيف

١٧١١) كانت زوجته فى خلالها موضع ميول وأهواء الكثيرين ، وأخيراً استرجعته . وكان جان جاك الثمرة التعيسة لتلك العودة إذ قضت أمه نحبها بعد ثمانية أيام من ولادته وهى فى حمى النفاس .

ولم يتعز إسحاق عنها ولم يجد ما يخفف من ألمه ويهون عليه مصابه إلا البقاء إلى جنب ابنه . وظل معه السنين الأولى من حياته . ولما بلغ الغلام السادسة من عمره ابتدأ يعوده القراءة . وجعلا يقضيان الليالى فى قراءة روايات تركتها أمه ويصرفان فى ذلك معظم الليل . وكثيراً ما آذن الصبح وهما على هذه الحال فكان داعيهما إلى الهجوع والنوم .

واستمرا كذلك زمناً . وكان أحب الكتب إلى جان جاك « بلوتارك » عن حياة العظماء . وبعد سنتين اضطرت بعض الحوادث أباه ليغترب عن سويسرا . ذلك أن شحناء قامت بينهم وبين من يدعى بول جوتييه ورأى أن مآله السجن لا محالة ، ففضل الهرب وعهد بروسو إلى خاله برنار الذى أرسله مع ابن له إلى (بوسى) عند معلم يدعى لامبرسييه . ولهذا المعلم أخت فى الأربعين من عمرها كانت تقوم على الطفلين قيام الأم وتعنى بتربيتهما .

قضى روسو قسماً من أسعد أيام حياته عند المسيو لامبرسييه . كان معززاً محبوباً يعلمه أستاذه على طريقة من أحسن الطرق ويحبب إليه العمل بكل الوسائل .

وكانت مدموازل لامبرسييه لا تترك فرصة فى الليل ولا فى النهار إلا أرادت أن تجعل للطفلين منها ربحاً للحياة ومكسباً ، ولقد دعت هذه العناية من جانبها أن يتعلق جان جاك بها أشد التعلق ، وكان فى هذا كما كان فى غيره ذا طبع خيالى دنف أورثته إياه أمه وخيال قوى متشرد أورثه إياه أبوه . لذلك فما أسرع ما انتقل تعلقه بمربيته إلى هيام دفعه ليجعل منها موضع حبه ويتودد إليها تودد المدنف إلى معشوقته . وما كانت هى لتظن شيئاً من هذا . فإن طفلاً فى العاشرة أو الحادية عشرة من عمره لا يمكن أن يتصور فيه مثل ذلك الميل وخصوصاً إلى فتاة تبلغ الأربعين .

لكن هكذا كان . وإلى القارئ بعض أقوال روسو فى اعترافاته عن ذلك : « ولما كانت مدموازل لامبرسييه تحبنا حب الأم فلقد كان لها علينا سلطتها ، وكانت تصل بهذه السلطة إلى معاقبتنا كلما استحققنا العقاب ، وقد قصرت عقابها

زمناً على تهديد كنت أخشى أشد الخشية تحققه ، غير أنه لما تحقق تبين لى أنه أقل شدة بكثير مما كنت أتوقع ، بل الغريب أن العقوبة زادتنى حبًّا فى تلك التى أوقعتها ، ولولا كل حي لها ورقتى الطبيعية لما امتنعت عن استثارة ما يستحق هذا العقاب ، فقد وجدت فى الألم والخجل الذى يعقبه شيئاً من اللذة زاد عندى الرغبة فى أن ينالنى من التى أنالتنيه على الخوف من أثره » .

وانحصر حب روسو لمدموازل لامبرسييه فى تصورات وأحلام لا يمكن لطفل فى سنه أن يصل إليها مهما بلغ من خياله . وقد استشعرت الفتاة ميله فلم تعد تسمح له ولابن خاله بالنوم فى غرفتها واعتبرتهما فى سن لا يجوز ذلك معها .

وسيرى القارئ أن هذا النوع الخيالى من الحب هو الذى تخلل حياة جان جاك كلها وأنه سيكون ذا أثر كبير فى كتاباته ومؤلفاته . وهو يرتكز على خيال قوى وعلى حياء كثير . ولروسو حظ وافر من الصفتين كثيراً ما جعله يخطئ فى النظر لنفسه وللأشياء فيعد إحجامه المبنى على الحياء أنفة وخيالاته الموهومة حقائق وأفكاراً .

ومع هذه الثورة التى يحكى لنا عنها روسو فى وصف حبه لمربيته فإن هذا الحب لم يكن إلا عاطفة قلبية بريئة أصح أن تسمى عطفاً وتعلقاً كبر فى نفسه بتأثير خياله المتوقد وميوله النفسية التى صرّفت حياته إلى حد كبير ، بل التى أثر بها أكبر الأثر فى أدب عصره .

وبعد أن ظل خمس سنين عند المسيو لامبرسييه ومعه ابن خاله الذى كان مرتبطاً وإياه برباط صداقة فى غاية المتانة – خمس سنين عرفا فيها كثيراً وجال فيها جان جاك جولات واسعة وسط الأحراش والمزارع التى تحيط (بيوسى) وملأ منها عينه واختزنها فى مخه لتخرج يوماً إلى الناس من نفثات قلمه – حدثت مسألة تافهة كانت السبب فى تركهما هذا المكان الذى متعهما بسعادة طويلة . ذلك أن كسر مشط لمدموازل لامبرسييه واتهم روسو بأنه الذى كسره فأنكر وأصر على الإنكار وازداد إصراراً لما انتهره معلمه ودعى خاله برنار لتحقيق المسألة وانتهت أخيراً بانفصال الغلامين عن معلمهما .

فلما ترك جان جاك معلمه خطر له أن يذهب فيزور أباه فى (نيون) وهناك التقى بمدموازل (فلسن) مع أمها . وما كاد يراها حتى نسى ما كان له من

علاقة سابقة مع مدموازل لامبرسييه وابتدأ خياله يصور له نوعاً من الحب جديداً . ولقد كان إذ ذاك فى سن تسمح له بتصور شيء من معنى اختلاط الجنسين . لكنه لم يعبأ بذلك وجعل كل ميله إليها ميل عطف مشوب بشيء من حب الاستئثار بها حتى لم يكن ليسمح لأحد فى حضرته أن يقترب منها . على أن ذلك لم يمنعه من أن تكون له بفتاة أخرى تكاد تعدله فى السن وتدعى مدموازل (جوتن) علاقات عطف من نوع آخر . وكأن هذا الطفل المتدرج إلى الشباب كان يريد أن يرضى كل شهوات خياله على مختلف ما يصور له من أنواع الميل والعطف . ففى حين كان ميله لمدموازل (فلسن) – وكانت يومئذ تبلغ الثلاثين من عمرها – ميل ظهور أمام الناس حتى إذا خلا بها اعتاده الخجل واحتار فى أمره إلى أن تنجيه الجماعة فترجع إليه صبوته ونشوته . كان ميله لمدموازل (جوتن) ممزوجاً بشيء من الخضوع لإرادتها والإذعان لسلطانها . وبينما كان يريد الاستئثار بفلسن كانت جوتن هى المستأثرة به المنسية إياه ما سواها فى كل لحظة وجد معها . ولم يعلم أحد بحبه لهاته الأخيرة إلا متأخراً وما كادوا يعلمون حتى فصلوه عنها .

ولقد أعان جان جاك على كسب عطف هاتيك الفتيات جمال فى صورته وبريق غير عادى فى نظراته ودقة فى فمه أقرب لأن تكون نسائية مبدعة . هذ فوق أن الخجل فى الشبان يستدعى عطف الكثيرات من الفتيات اللائى يرين فيه ما يسمح لهن من غير خجل أن يتنهين بمن يعطفن عليه . وجان جاك على ما عرف القارئ خجول كثير الحياء .

ولقد كانت هذه الزيارة لأبيه آخر سعد طفولته . وكانت عودته بعد ذلك إلى خاله برنار فى جنيف مبدأ نحس طويل . فبعد أن أقام زمناً فى (نيون) وغادرها راجعاً إلى مستقره أرسل به خاله إلى أحد (الكتبة العموميين) ليأخذ عنه الحرفة. وأطراه خاله للمسيو (ماسرون) عندما ذهب به إليه . لكن تلك الحرفة لم ترق فى عين روسو وصدف عنها وأظهر فيها التباطؤ والخمول إلى حد اضطر معلمه أخيراً لطرده بعد أن أرهقه سوء معاملة ظناً منه أن ذلك ربما يرد إلى تلميذه بعض النشاط والاهتمام .

هنالك أرسل به خاله ليحترف النقش عند معلم يدعى (ديكومون) ليعده

للاشتغال من بعد ذلك فى صناعة الساعات ويزاول المهنة التى زاولها أبوه من قبله . وأحس الغلام بشيء من الميل إلى هذه الحرفة . لكن معلمه وكان فظًّا غليظاً كان يحسب أن الوسيلة الوحيدة لتعليم الأولاد هى إرهاقهم بالعقاب . لذلك ولما كان يجده روسو من الميل إلى النقش ابتدأ يشتغل سرًا ومن وراء معلمه بأعمال أخرى متعلقة بالنقش . من ذلك أنه ابتدأ ينقش لأصحابه طرزاً يلعبون بها . غير أن معلمه ما لبث أن اكتشف ما يعمل حتى انهال عليه وأوسعه ضرباً مدعياً أنه يقلد نقود الجمهورية .

« ولقد كان من أثر ظلم معلمى واستبداده أن كرّه لنفسى عملا ربما كنت أحببته وحمّل نفسى رذائل كنت لولاهما أبغضها ، وكان من بين هذه الرذائل الكذب والكسل والسرقة » . وابتدأت نفس روسو حينذاك تخبث وتنحط وابتدأ ما كان كسبه من قراءته أيام الطفولة ومن تعاليم المسيو لامبرسييه ومن عطف الناس عليه يتدثر بدثار كثيف من النقائص المشينة . فكثرت أكاذيبه وسرقاته وازدادا خمولاً وضعة ، وبمقدار ما كان يوغل فى ذلك كانت عقوبات معلمه تزداد وتشتد . وصغر هو أمام ذلك إلى حد أصبح العقاب معه أمرا عاديًّا بسيطًا يحتمله من غير ألم وبلا امتعاض ، وكأنه كان يراه المقابل الطبيعى لعمله وتركزه .

ولقد ظل على هذه الحال زمناً طويلاً . لذلك لا يعجب القارئ إذا قلنا له إن هذه الصفات التى نمت فيه فى أثناء هذه الفترة من حياته بقيت معه إلى حد ما طول أيامه . بل لقد حكى هو فى اعترافاته أنه فى الخمسين من عمره اختلس نقودًا بأن رد (تذكرة) فى (الأوبرا) كان اشتراها له صديقه (فرانكى) ليقضى الليلة معه وأخذ ثمن التذكرة من جديد وخرج . ولولا ذلك الزمن النحس الذى قضاه يقاسى الألم والتعس لما وجدت كل هذه المفاسد إلى نفسه سبيلا .

وكان حظ روسو من سرقاته أيام اشتغاله بتعلم النقش أن يصل إلى شيء من النقود يشارك به خلانه فى مسراتهم . فلما طال به ذلك ابتدأ يعاوده الملال وراجع نفسه شيء من سابق أنفتها . فأكب من جديد على القراءة ، وانصب عليها بشكل جنونى . فلم يترك كتاباً وقع تحت يده إلا قرأه ولا ترك وسيلة يقتنى بها الكتب إلا عمد إليها . وكان ينفق ما يصل ليده من زهيد النقد فى استعارة الكتب من تاجرة

هناك كانت لا تأبى إقراضه . وألهاه ذلك عن سابق مفاسده فنسى ما تورطت فيه نفسه من النقص ولم يترك فرصة يستطيع فيها القراءة من غير أن يغتنمها .

ولم ينس الخروج إلى الغابات والمزارع للرياضة الوقت بعد الوقت من بعد أن أحس بعظيم لذة الطبيعة فى نضرتها أيام مقامه (ببوسى) لكنه تأخر أكثر من مرة عن الدخول قبل إقفال أبواب المدينة فأنحى معلمه عليه لطماً ولكماً . وبينا كان فى الغاب يوماً ورجع إذا الأبواب تقفل فى وجهه وفى وجه إخوان معه . هنالك حلف لا دخل المدينة ولا رجع إلى ما كان فيه وغادر جنيف هائماً على وجهه .

إلى ذلك اليوم كان جان جاك بروتستانتياً كما ولد . وإلى ذلك اليوم عاش تحت سيطرة أهله ، إن أباه أو خاله ، وعاش عيش أمثاله الشبان الذين هم فى سنه ، لكنه امتاز دائماً بحدة خيال غريبة ما أكثر ما كانت سبب شقائه. ومن يومئذ انتهى ذلك العيش المنتظم على ما يظن الكافة ، وابتدأ جان جاك حياته المتشردة . وكان إذ ذاك فى السادسة عشرة من عمره .

خرج من جنيف وقد اعتقد نفسه فك من رباط الأسر وأصبح قديراً على الوصول لأرقى الغايات . قال : ودخلت العالم العظيم بكل ثقة آملاً أن مواهبى ستحف به وأنى سأجد عند كل خطوة أخطوها أعياداً وغنائم وأصدقاء يرجون خدمتى ورفيقات كل غرضهن أن يعجبنى . على أنى لم أكن أريد أن يشتغل بى العالم كله بل كنت مكتفياً بأن تحيط بى جمعية جميلة تنسينى ما سواها . . ووقفت أطماعى على الوجود فى قصر تخصنى فيه عناية السيد والسيدة وتصبح البنية فيه رفيقتى والابن صديقى والمجاورون فى حمايتى » .

هذه أطماعه يومئذ ومن خلالها يرى القارئ جان جاك الخيالى السابح فى بحار الوهم البعيد عن حقيقة ما يحط ببنى آدم الذين يتشردون . على أن أول أسفاره لم تكن من التعس لتصده وترجعه إلى أهله وعشيرته ، بل كان فيها ما شجعه على الاستمرار ليقذف به ذلك فى مهاوى الشقاء .

ترك جنيف واستمر فى سياحاته حتى وصل إلى (كونفنيون) فى بلاد السافوا وهناك التقى بقسيس هذا البلد المسيو (بنتفير) . فأحسن القسيس لقاءه وأكرم رفده وأجلسه وإياه على مائدة ما كان روسو ليحلم بها وجعل يكلمه فى أمر عقيدته طمعاً فى نقله من بروتستانتيته إلى الكثلكة . وما كان مثل هذا الخاطر ليمر ببال

شاب كجان جاك ولا هو فكر فيه ساعة كان يكلمه القس فى أمره ، وإنما سكت استبقاء لحسن اللقيا وكرم المضيف . وحين أراد هذا الأخير وداع جان جاك زوده برسالة إلى سيدة فى (أنسى) هى مدام دى فارنس التى شغلت قسماً مهماً من حياة روسو على ما سيرى القارئ . فظل يتلكأ طوال الطريق حتى بلغ (أنسى) بعد ثلاثة أيام قضاها فى التجوال وشبه السؤال . وهنا نترك الكلمة لجان جاك نفسه ونقل للقارئ شيئاً من اعترافاته :

« كنت يومئذ فى منتصف السادسة عشرة من عمرى . ومن غير أن أكون شاباً جميلاً قد كنت منتظم القامة جميل القدم دقيق الساق حى الوجه صغير الفم فاحم لون الشعر صغير العينين داخلهما ولكنهما كانتا شديدتى البصيص تقذفان كل ما فى دمى من حرارة . على أنى مع الأسف لم أكن على علم بهذا وما علمته فى حياتى إلا بعد أن أصبح علمى به غير مجد نفعاً . .

« ولقد كان يخيل إلىّ أن تلك السيدة التى دلنى عليها المسيو بونتفير لا يمكن أن تكون إلا بتولا شمطاء فما رأيت (حين التفاتها إلىّ وفى ممر وراء منزلها) إلا وجهاً خلق من حسن وعيوناً جميلة زرقاء تملؤها الرقة والعطف ولوناً باهراً وعنقاً ساحراً . ولم يفتنى منها شىء لأول ما نظرتها وأصبحت لحظتئذ أسيرها موقناً أن ديناً يدعو إليه مثل أولئك الرسل لابد سائق إلى الجنة .

« وكانت يومئذ فى الثامنة والعشرين من عمرها . وكان جمالها من ذلك الجمال الباقى ، لأنه فى الخلقة كلها لا فى القسمات منفردة . لذلك كان جمالها لا يزال فى كل نضرته وكانت ذات روح مملوءة حناناً ونظرات كلها الرقة وابتسامة ملائكية وفم على قياس فمى وشعر نادر نوع جماله . وكانت صغيرة الحجم نوعاً بل قصيرة متقاربة فى قوامها من غير تشويه . لكنها يستحيل أن تجد مثل جمال رأسها وصدرها ويديها وذراعيها » .

هذه هى مدام دى فارانس التى نزل عندها روسو لتدله على دين حق وتخرجه عن دين آبائه ، وما أقرب ما خلقت بينهما صلة الود والتوافق ، ولولا أن راهباً لاحظ ما هنالك وبحث وراء إقصاء روسو واضطر مدام دى فارانس . محافظة على مركزها ، لتوافقه على هذا الإقصاء لعاش روسو إلى جانبها من ذلك اليوم سعيداً . لكن كأنما قضى عليه أن يغادرها بعد أيام من وصوله ليرجع إليها من جديد

بعد زمن يمضيه فى البؤس والنحس فيتمتع بعد ذلك بحب يتعدى حب الخيال ويمازجه شيء من الخسة والخذلان .

وترك (أنسى) ذاهباً إلى (تورين) ومعه ذلك الراهب الذى أوعز إليه بسفره وزوجته . ظلوا فى سياحتهم بين ربوع السافوا وسويسرا يقطعون أبدع بلاد الله وأجملها مناظر فتعزى ذلك الطريد بعض العزاء. وجعل يمتع ناظره بجمال الطبيعة الباهر . ولقد كان على ما عرفنا من عشاق الطبيعة ومحبيها والمولعين بها إلى حد الهيام . لذلك فلقد ساءه أن يصل تورين على عجل تاركا وراءه الجبال بما عليها من الشجر والزهر محيطة بالبحيرات البديعة الرائعة .

وصل إلى تورين وابتدأ خياله يلعب به من جديد وخيل إليه أن حياة كلها السعادة والعظمة تنتظره . على أن جيبه كان قد خلا . فلم يجد وسيلة أمامه إلا أن يقدم الخطاب الذى زوده به رئيس دير أنسى إلى رئيس دير تورين وهناك أدخل ليتعلم الدين الجديد .

وكان معه فى الدير جماعة من الشبان ظهر له بعد أن عرفهم أنهم أفاقون وجدوا فى الاتجار بدينهم مرتزقاً . أما الفتيات اللائى كن هناك فلم يكن من بينهن من يسر مرآها إلا فتاة فى الثامنة عشرة من عمرها أراد روسو أن يأتلف وإياها وأن يشغل خياله بها ولكن أمنيته ذهبت سدى وخرجت الفتاة بعد شهرين من مقامه بالدير ولم يجرؤ أن يخاطبها إلا فى خياله .

وقضى فى الدير زمناً وهو فى جدال مستمر مع أساتذته الذين كرسوا أنفسهم لإدخال الكثلكة إلى قلبه وقلب أمثاله . وكان كثيرا ما يحاججهم بما قرأ فى أيامه الأولى . أما من معه من الشبان فلم يكن من يأبه له إلا شاباً ابتدأ الصداقة معه ثم انقلبت الصداقة عند ذلك الشاب إلى حب شهوانى حتى إنه راود روسو عن نفسه . إذ أراد أن يفسق به ؟ ! فأذاع روسو الخبر فى الدير . لكن الرهبان هناك انتهروه بحجة أن الأمر تافه لا يستحق كل هذا الاهتمام بل أخبره أحدهم أنه فى صغره مر بالدور الذى أراد صديق روسو أن يخضعه له وأنه لم يجد فى ذلك ألماً . وبعد ثمانية أيام من هذه الحادثة ألبس ذلك الغلام الفاجر الثياب البيضاء علامة الطهر وصبت عليه كأس الكثلكة .

وأراد روسو النجاة من الدير بشكل ما . لكنه لم يفلت إلا بعد شهر من الزمن .

وأفلت حين اعتبر كاثوليكياً وأفرج عنه وأعطى عشرين فرنكاً . فخرج فى المدينه هائماً يقدر لمستقبله وينتظر حياة طيبة . لكنه كان يخشى نفاد ما فى جيبه فعمد إلى بيت حقير قبلته فيه صاحبته مع جماعة آخرين على أن يدفع ثلاثة صلديات كل ليلة . وفكر هو فى احتراف النقش وجعل يبحث عمن يجد عنده عملاً ، ولقد أخفق مرات حين عرض للسؤال عن نفسه . وفيما هو يوماً فى جولاته مر بحانوت به سيدة جذابة عرض عليها خدمته فأحسنت تلقيه وقدمت إليه ما طلب من معدات العمل . وقبلته قبولاً حسناً .

تلك السيدة هى (مدام بازيل) التى شغلت خيال روسو زمن بقائه معها والتى أنسته من كان قبلها من أمثالها . ولقد كان زوج هذه السيدة على سفر وكلف أحد عماله أن يقوم بما تطلبه زوجه من الخدمة. فلما رأى هذا العامل أن روسو ابتدأ يأخذ مكاناً من قلبها عاودته الغيرة وصمم على الوقيعة به بعد أن ألهب خياله بنار الغرام .

وإن روسو ليذكر هذه المسألة فى اعترافاته وفى مذكرة وجدت فى مكتبة نوشاتل على طريقة تدل على أن السيدة اهتمت له حقيقة وإن كان هو قد سار معها على طريقته فى الحب ، طريقة الاستكانة والهدس . قال : تبعتها يوماً بينما صعدت إلى غرفتها وجلست إلى جانب النافذة المقابلة للباب وفى يدها بعض النسيج . ولا شك أنها لم ترنى ولم تسمع حركة دخولى لقيام ضجة العربات فى الطريق . ولقد كان منظرها بديعاً ونمّ رأسها المنحنى بعض الشيء عن بياض عنقها وزانت شعورها المرفوعة برشاقة أزهارٌ رصّعتها . وعم شكلها كله بهاء سمح لى الوقت أن أملأ منه ناظرىّ حتى لقد خرجت عن طوقى فركعت عند الباب ومددت نحوها ذراعى فى حركة مهتاجة واثقاً كل الثقة أنها لا تستطيع أن ترانى . ولكن مرآة فوق المدفأ خانتنى . ولست أدرى أى أثر تركته حركتى هذه فى نفسها ، فإنها لم تنظر إلىّ ولم تكلمنى بل أرتنى بإشارة من أصبعها الفرش المطروح عند قدميها . ولقد كان يتساوى عندى أن أرتعد وأصيح أو أطير إلى المكان الذى أشارت إليه . ولكن المدهش الغريب أنى فى هذه اللحظة لم أجرؤ على شيء من هذا فلم أنبس بكلمة ولا استبحت منها لمحة ولا مسستها لأعتمد لحظة على ركبتها بل كنت أخرس لا عن سكينة . ونطق كل شيء فىّ خلا الصوت بمعانى السرور والاضطراب

والشكر والرغبات المتباينة غير المحددة الموضوع المتكمشة خشية أن يصدر منها ما لا يسر . ولم تكن هى الأخرى أكثر منى هدوءًا ولا أقل استياء ، ولم تستطع فى اختلاطها حين رأتنى حضرت إثر إشارة صدرت عنها من غير روية ، أن تقبل علىّ ولا أن تبعدنى فلم ترفع نظرها عن نسيجها وجاهدت أن تظهر كأن لم ترنى عند أقدامها . وحسبت فى غفلتى أنها شاركتنى فى اختلاطى بل فى رغباتى وإنما منعها خجل كخجلى . على أن ذلك لم يسمح لى أن أستعلى على ما عندى وقد قدرت أنها ، وهى تزيد عنى فى السن خمس سنين أو ستًّا ، يجب أن يكون لها هى كل الجرأة . وقلت فى نفسى إن سكوتها عن استفزاز إقدامى دليل عدم رغبتها فيه . ولست أدرى كيف كان لهذا المنظر الصامت أن ينتهى ولا كم من الزمن كنت أبقى حيث كنت لولا أن فوجئنا . حين ذلك قالت : قم فتلك روزينا . فقمت مسرعاً وأمسكت بيد مدتها إلىّ وأودعت فوقها قبلتين تتقدان أحسست فى ثانيتهما أنها كانت تلصق بشدة يدها على شفتى . . . . تلك كانت لحظة ما رأيت مثلها رقة فى حياتى ، وفرصة أضعتها ولم تعد وبقى حبنا الوليد عندها » .

ومن ذلك اليوم جعلت مدام بازيل ترّقيه فى مدارج العمل وتزيد بذلك غيرة زميله الذى لم يصبر ، فأبلغ زوجها بعض ما رأى ، فلما كان فى بعض الليالى وقد قدمت لأضياف عندها وليمة فاخرة وأجلست روسو وزميله على مائدة خاصة إذا زوجها يدخل ، وكان أول ما عمل بعد تهادى التحية مع الحاضرين أن سأل عن سبب وجود روسو وأن طرده أشنع الطرد .

ولقد ذكر روسو هذه المسألة فى اعترافاته على شكل يدل على قوة ذاكرة فى غاية الغرابة فيما يتعلق بالأماكن والحركات قال : « وفى منتصف العشاء سمعنا عربة تقف على الباب وشخصاً يصعد هو المسيو بازيل . وإنى لأراه وكأنه داخل فى هذه اللحظة وعليه رداء قاتم الحمرة بأزرار من ذهب كرهتها نفسى وكرهت ذلك اللون من يومئذ ، وكان المسيو بازيل طويلاً وسيم الطلعة حسن اللقيا . فدخل بجلبة وعليه مظهر من يدهش قومه . فعانقته زوجته وأمسكت بيديه وأبدت له عطفـاً استقبله من غير أن يرده وسلم على الحاضرين وجلس يتناول الطعام ، وما كادوا يفاتحونه الحديث عن سياحته حتى حانت منه التفاتة لمائدتنا الصغيرة

وسأل بلهجة شديدة عن ذلك الشاب الصغير الجالس إليها » . هذا مع أن روسو لم ير المسيو بازيل إلا فى ذلك اليوم ولم يره بعدها .

وخرج من عند مدام بازيل ورجع إلى ما كان فيه من تشرد تعينه دريهمات جادت عليه هى بها . ثم رجع إلى الوكر الذى كان قد نزل فيه يدفع عن الليلة ثلاثة صلديات وظل فيه حتى دلته صاحبته على الخدمة عند الكونتس دى فرسليس . وكانت هذه سيدة عاقلة مفكرة متعلمة محبة للأدب ولكنها مريضة لا تستطيع الكتابة بيدها . فاتخذت روسو لتملى عليه ما شاءت من خطاباتها الرقيقة البديعة . فخشى سائر الخدم ما سيكون من نتيجة هذا المركز الجديد فى إعلاء شأن زميلهم وسعوا حتى جعلوا الطبيب ينصح للكونتس بالعدول عن التفكير والكتابة . وبذلك أصبح روسو عندها نسياً منسيًّا .

« ولم تُسمعنى مدام فرسليس يوماً كلمة حنان أو عطف أو رحمة ، بل كانت تسألنى ببرود فأجيبها بتحفظ . وكانت إجاباتى لها مملوءة حياء حتى عدتها وضيعة وأنفتها ولم تسألنى بعد ذلك عن شىء ولم تخاطبنى إلا فيما يخص خدمتى ، وأصبح تقديرها لى لا بما أستحق ولكن على نسبة المركز الذى وضعتنى فيه فلم تعتبرنى إلا خادماً ومنعتنى أن أكون شيئاً آخر . . ومن ذلك اليوم تولدت عندى الكراهية لنظام ينتج هذه المناصب » .

وتوفيت مدام فرسليس وروسو فى خدمة بيتها . وبالرغم من أنها أوصت لخدمها فلم تترك له هو شيئاً . فأعطاه ابن أختها الكونت دلارك ثلاثين ديناراً وترك له الملابس التى عليه والتى أراد رئيس الخدم أن ينزعها منه .

وفيما هم فى جلبة الوفاة وما يعقبها فقدت مدموازيل بونتال ابنة ربة البيت شريطاً من شرائط الرأس وردى اللون ببعض الفضة وبالبحث عنه وجد عند جان جاك : « ولقد كانت أشياء كثيرة أغلى سعراً من هذا الشريط تحت يدى . لكنه وحده الذى استغوانى فسرقته . فلما سئلت من أين أخذته اختلط علىّ الأمر وتأتأت ثم قلت فى خجل إن (ماريون) هى التى أعطتنى إياه » وماريون هذه هى طاهية مدام فرسليس . وكانت ذات جمال ونضرة لون ورقة ولطف لا مثيل لها « ونودى بها إلى جمعية كان من بين من حضرها الكونت دلارك وأظهر لها الشريط وسئلت عنه فاتهمتها بتبجح فبهتت وصمتت ثم أرسلت إلىّ نظرة كانت كافية

لتصعق الشياطين . لكن قلبي القاسي تحجر . فنفت عن نفسها التهمة بثبات ولكن من غير قوة وطلبت إليّ أن أراجع نفسي فلا أدنس فتاة بريئة لم ترتكب في حياتها نكراً . لكني ثبتُ على إنكاري بتبجح جهنمي وأعدت أنها هي التي أعطتني الشريط . فبكت الفتاة المسكينة واقتصرت أن وجهت إلى هذه الكلمات : (إيه روسو . لقد اعتقدتك ذا خلق حسن . وهأنتذا تقذف بي إلى التعس وما أود وأيم الله أن أكون مكانك » .

ودافعت المسكينة عن نفسها ولكن ثبات روسو على كذبه بقحة وقوة أدخل الشك إلى نفس الكونت دلارك أي الاثنين جنى . فطردهما جميعاً . .

« وإني أجهل ما آل إليه أمر فريسة سبتي ولكن لا شيء يدل على أنها وجدت بعد ذلك مكاناً تخدم فيه . فقد حملت وصمة قاسية أساءت لشرفها من كل الوجوه . وإذا لم تكن هاته السرقة إلا سرقة بسيطة فهي على كل حال سرقة ، وسرقة أتتها لتستغوي بها شاباً ! ! ومن يدري أين ذهب بها وهي في تلك السن خذلان الطهر المهان » .

هذه هي الجريمة التي أقلقت نفس روسو طول حياته والتي لم يفض بها لإنسان إلا بعد أن نشرتها اعترافاته عقب موته . وهذه هي الجريمة التي دفعه إليها خياله المتوقد وحساسيته الشديدة وغروره الكبير . هاته الصفات التي امتاز بها والتي دفعته في أحيان كثيرة إلى عمل الخير . وإنك لتقرأ تبريره لنفسه عن هاته الجريمة فتحس بهذه الصفات متجلية واضحة :

« على أن حب الشر لم يكن أبعد مني يوماً كما كان في تلك اللحظة القاسية . وغريب أن تكون صداقتي لهاته الفتاة التعسة هي التي دفعتني لاتهامي إياها حيث كانت حاضرة لذهني فدفعت التهمة عن نفسي بأن ألقيتها على أول من عرض نفسه واتهمتها بأنها عملت ما أردت أن أعمله وبأنها أعطتني الشريط لأنني كنت أقصد إعطاءه إياها . . فلما رأيتها بعد ذلك تمزق قلبي . لكن وجود ذلك الجمع منع عليّ سبيل التوبة . وما كان ذلك مني خشية العقاب وإنما خشيت الخجل . خشيته أكثر من الموت ومن الإجرام ومن كل شيء في العالم . لقد كنت أود لو ابتلعتني الأرض . ولكن الخجل تغلب على كل شيء ودفعني إلى التبجح .

وكلما ازددت إجراماً ازددت تمنعاً عن الاعتراف بالجريمة خشية ظهورى أمام الناس كسارق سبَّاب كاذب » .

وإن الإنسان ليحس فى هذا التبرير من روسو لعمله بمعارضته قيمة هذا العمل بحقيقة مقصده . ولكأنه يريد أن يقول إن عملى ليس نكراً لأن طبيعتى تأبى الشر وتنفى كل سوء قصد .

وخرج من بيت فرسليس ورجع إلى منزله الحقير فأقام به أسابيع عدة دفعته فيها البطالة ليفكر فى الشهوات فجعل يتجول فى أنحاء تورين رجاء الوقوع على ما يمتعها . بل لقد بلغ من تحكمها فيه أن دفعته إلى شبه جنون كان يذهب معه إلى أماكن قصية ينتظر فيها مرور النسوة فيحملق فيهن ويأتى أمامهن أفعالا منكرة . واسترسل فى ذلك وجعل يذهب إلى عين ماء يتردد إليها الفتيات ليستقين ويأخذن الماء منها . ووجد عندها كهفاً يتدرك إليه سلم اتخذه درءاً يلجأ إليه إذا أصابته داهية من هاتيك الفتيات وما كان يحسب أن سيصيبه أضعاف ما يتوقع . ففيما هو يغازل إحداهن على طريقته الجنونية صاحت فى وجهه فهرول إلى ملجئه فتبعه رجل معه سيف وتبعه العجائز يتأبطن أيدى المكانس . ولما أدركوه توسل إلى الرجل وادعى أنه ابن أسرة كبيرة وأنه فر من أهله الذين أرادوا حبسه لجنة قامت به . فتركه الرجل وأتجاه من العجائز ومكانسهن .

وكان من أثر هذه الحادثة أن ردت إليه بعض هدوئه وعقله فاستعاد فى ذاكرته من عرف أيام كان فى خدمة مدام دى فرسليس وجعل يتردد على أحدهم ، وهو قس من السافوا اسمه (جيم) ، وكان رجلا متعقلا بصيراً . فشرح لجان جاك مسائل كثيرة مما يتعلق بالعقيدة ، وعرض عليه كذلك نظريات عدة كان أعلقها بذهنه أن لو استطاع كلّ أن يقرأ ما فى قلوب الآخرين لكان طلاب الهبوط أكثر من طلاب الرفعة .

وفى هذه الأثناء طلبه الكونت دلارك وعرض عليه أن يخدم فى بيت الكونت (جوفون) فقبل ذلك وإن ساءه فى نفسه أن يكون دائماً خادماً . ودخل عند الكونت فأحسن استقباله وقدمه لابنه ولزوجة ابنه فسر من ذلك الابتداء وحسب أن سيكون عما قريب أرقى مما دخل . وأظهر لذلك اهتماماً فائقاً فى عمله وبقى بمنزل (الجوفون) مكرماً محبوباً لا يعهد إليه من أمور الخدم إلا خدمة المائدة .

وما أسرع ما تعلق خياله بابنة البيت مدموازل (دبريل) كعادته فى الإسراع فى الحب ، وكعادته لم يلق معها أى نجاح .

وبعد زمن ابتدأت كفاياته تظهر فيه ، أراد رجال الدار إعداده ليتبعهم فى مراكز سياسية خطيرة واتحده ابن الكونت جوفون سكرتيراً وخادماً وجعل يعلمه اللاتينية وأتقن معه الطليانية . لكن هذا الشاب كان وكأنه محكوم عليه أن يقضى شبيبته بل حياته متشرداً . فإنه بعد أن نال الحظوة فى القصر وبعد أن وجد من يثقف له عقله ومن يرتب له المعلومات المشتتة التى كان حصلها من قراءاته ويزيد له فيها ويكملها صادف صديقاً له قديماً من أهل جنيف ، شاباً من سنه يدعى باكل . وما أسرع ما ازدادت الألفة بينهما وبلغت حد التعلق وأصبحا لا يفترقان . فيجىء « باكل » عند روسو كل يوم فى القصر ويعطله عن عمله . فلما استحس أهل القصر ذلك حرّموا على باكل دخوله فجعل روسو يخرج إليه . فلامه ابن الكونت جوفون ومن معه فلم يرجع . وأخيراً أعفى من الخدمة وما كان أكثره بذلك سروراً . فقد رتب مع باكل أن يرجع إلى سويسرا راجلا يقطع الطريق الذى جاء منها ممتعاً بكامل الحرية .

ورجعا معاً يقطعان طريقاً زانته الطبيعة بأبدع ما أهدف به بقعة فى العالم ، فيمتع روسو نفسه من ذلك بكل ما تطلبه حواسه وإحساساته المتوقدة . وبقيا يعرجان كلما جنهما الليل على القرى المنثورة بين الجبال والخضرة فينالان من أهلها حسن الاستقبال وكرم الوفد . وكذلك ظلا حتى إذا وصلا إلى (شمبرى) فكر روسو فى التخلص من صديقه لاقترابه من (أنسى) موضع إقامة مدام دى فارنس ، كما ابتدأ يفكر فيما سيكون لعودته عليها من الأثر . فلما استحس صديقه ذلك منه ووصلا إلى (أنسى) قبله قبلة الوداع وافترقا فراق الأبد .

وهنا تنتهى الحياة المتشردة المملوءة بالصغائر ويفتح أمام روسو باب جديد من أبواب الحياة . هنا يرجع لتلتقطه مدام دفارانس من تشرده وخدمته فتحتفظ به زمناً غير قصير لا يغادرها فيه إلا قليلا وليتركها عند آخره فيذهب إلى باريس حيث تنتظره الحياة التى تخلد اسمه .

٢

ترك روسو صديقه عندما وصل إلى أنسى . ودخل البلد وقلبه مشتت وباله مشتغل يحسب للقيا من لم تشغله عنها مدام بازيل ولا مدموازيل دبريل ولا فتيات البئر ، والتى لم يفتأ طول مدة غيابه يخاطبها وتكاتبه . فلما رأته ألقت عليه نظرة عطف واشتياق ردت إلى باله الهدوء وإلى قلبه الطمأنينة . وهنا بدأ روسو حياة سعيدة ملأى بالإحساسات الرقيقة المتبادلة .

وتبودلت بينهما محبة بلغت حد الهيام وأعدت هى له فى بيتها غرفة مطلة على حدائق وأعناب تنتهى بالمزارع الواسعة ، ولم يكن معهما بالمنزل سوى خادم يدعى (آنيه) وخادمة تسمى (مرسريه) كانا يقومان بنظام المنزل وجميع شئونه . لذلك ، وبالرغم من أن الحياة الجديدة لم يكن فيها من السعة مثلما كان فى الحياة التى مر بها روسو فى تورين ، ولهذا الإحساس المتبادل بينه وبين ربة البيت ، فقد أحس فى حياته الجديدة بنعيم لم يكن يخطر له من قبل ببال .

وتزايد الحب بينهما حتى صار يشغل بال روسو أيما شغل . على أن ميل مدام دفارانس له لم يكن ذلك العطف المتبادل بين رجل وامرأة ، بل كان عطف سيدة على شاب يستحق الحنان . ولهذا فلقد كانت تدعوه (صغيرى) ويدعوها (أمى) ولهذا أيضاً لم تمتنع هى عن الاستمرار فيما كانت فيه من قبل من تبادل الصلات الجنسية مع أشخاص غير روسو .

وما كان هو ليفكر فى مثل هذه الصلة أول الأمر . بل لقد بقى معها كما كان مع سواها خياليًّا عذريًّا ذاهباً بتصوراته فى سحب الآمال والمنى . يرى فى كل ما أحاط بها موضع سعادة ويرى فى قربها نعمة وهناءة .

وإلى القارئ صحيفة من اعترافاته غاية فى الإبداع عن ذلك الوقت من أيام حياته :

« يموت الهوى منى إذا ما لقيتها

ويحيا إذا فارقتها فيعود

« وكثيراً ما دفعتنى حاجة القربى منها إلى مواقف حنان تستدر مدامعى . وإنى لأذكر دائماً يوم عيد ذهبتُ فيه لأداء صلوات الصبح وخرجتُ أنا لأتنزه بعيداً عن المدينة مملوء القلب من صورتها ومن الأمل القوى فى قضاء أيامى . على أن تعذر ذلك يومئذ كان واضحاً أمامى وكنت شاعراً تمام الشعور أن سعادة ذلك مبلغ متاعى بها هى لابد قصيرة المدى . ولقد أرسل هذا الإحساس إلى أحلامى شيئاً من الحزن وإن لم يبلغ ذلك الحزن الكآبة ولا هو حرم من أمل يخفف وقعه . واستثارت عندى دقات الأجراس وأغاريد الطير وجمال النهار ورقة المنظر والمنازل المشتتة بين الأشجار حيث تخيلت مستقرى وإياها ، هزة رقيقة حية حزينة مؤثرة تصورتها نقلتنى إلى ذلك المستقر البديع فى تلك الأوقات السعيدة يتذوقها قلبى على ما يحب من غير تفكير فى الشهوات ما دام قد حصل من الهناء على كل ما يريد » .

وكذلك راجع روسو السلام والسكينة بعد إذ فارقاه طويلا ورجع إلى الاستقرار والهدوء بعد أن قضى زمناً متشرداً أو فى مراكز وضيعة وجعل يقرأ من جديد مالئاً بالقراءة كل أوقات فراغه مستعيناً فى قراءته بصاحبته التى قرأت كثيراً والتى كانت بذلك ذات عقل وحسن اختيار .

وفيما هو يتذوق هذه السعادة زار مدام دفارانس ذو قرابة لها هو المسيو (دوبون) وكان رجلا راجح العقل كثير العمل فقامت بإيجاد التعارف بينه وبين روسو وسألته عما يصلح جان جاك له فبعد إذ رآه وكلمه ووقف على ما تبين له منه ، حكم بأنه لا يصلح لشىء ، فهو ضيق العقل أكثر ما يمكن أن يصل إليه مع التساهل فى الحكم أن يكون قساً فى قرية .

ولم يكن المسيو دوبون وحده هو الذى حكم على روسو هذا الحكم بل لقد وجهه إليه كثير غيره . وإنا ننقل للقارئ تفسير روسو لهذه المسألة وسيرى منها مركز جان جاك العقلى وقوته التصورية وما كان من أثرهما على حياته بعد ذلك ككاتب ومفكر . قال :

« يجتمع فىَّ شيئان متضادان أو يكادان لا أستطيع أن أتصور اجتماعهما . إحساس شديد وعواطف قوية وشهوات متحكمة يقابلها أفكار بطيئة التبين لا تظهر إلا بعد زمن فكأنما فىَّ قلب رجل وعقل رجل آخر . فأما العواطف فتسرع إلىَّ

كالبرق تملأ كل نفسى ثم لا تضىء شيئاً أمامى بل تغشانى وتتركنى محساً بكل شىء ، غير مبصر شيئاً ، ثم أبقى متبلداً يعوزنى الهدوء المطلق كيما أفكر .

« وهذا البطء فى التفكير والتوقد فى الإحساس يلازمنى فى وحدتى وعملى كما يلازمنى فى محادثاتى واجتماعاتى . فلا تترتب الأفكار فى ذهنى إلا بأقصى الصعوبة فهى تدور فيه أولا ثم تتقارب حتى تستفزنى وتستدعى اهتزازات عصبية عندى . وفى هذه الأثناء لا أبصر شيئاً ولا أستطيع أن أكتب كلمة واحدة . بل يجب أن أتريث وأنتظر حتى تهدأ هذه الحركة فى مخى ويأخذ كل شىء فيه مكانه ببطء وبعد لأى شديد » .

وكان روسو لهذه الصفة عنده لا يحسن الكلام فى أى مجتمع يوجد فيه . ولا شك فى أن ذلك من الأشياء التى جعلته مؤثراً للوحدة مبغضاً للاجتماع محباً للحياة وسط الطبيعة الصامتة كما أن توقد إحساسه كان يسمح له بالتمتع بجمال الطبيعة أكبر متاع .

ولكأنما صادقت مدام دفارانس على رأى مسيو دوبون فرأت أن يتعلم روسو ليكون قسًّا فى مستقبله . وأرسلت به إلى دير فى البلد تحت حماية راهب اسمه المسيو (جرو) طيب القلب حسن العشرة فأسلمه هذا الراهب إلى قسيس غليظ القلب سمج الطبع يعلمه ، فسئم روسو هذا المعلم . حينذاك نقله حاميه تحت إمرة معلم آخر هو المسيو (جاتيه) وكان شاباً رزيناً عاقلا وديداً . فعنى بروسو خير عناية وجعل يدرس له قدر جهده . على أن ذلك لم ينتج كثيراً وصدقت نبوءة (دوبون) وحكم بأن روسو لا يصلح ليلبس رداء الرهبنة .

على أن صداقة المسيو (جاتيه) له أفادته فى معلوماته ، كما أفادته من قبل ذلك محادثاته مع المسيو (جيم) . وكان لهما من الأثر فى حياته بعد ذلك أن اتخذهما مثلا لبطله فى (الاعتراف بالإيمان لقس من السافوا) . وكان معه حين مقامه بالدير كتاب موسيقى أخذه معه يوم ذهابه إليه واجتهد أن يستمر ليتعلم فيه ما كانت مدام دفارانس قد بدأت تعلمه إياه . فلم يتقدم إلا قليلا برغم إدمانه قراءته . فلما خرج من الدير ورأت (أمه) هذا الميل عنده عهدت به لرئيس موسيقى كتدرائية البلد المدعو مسيو (لمتر) . ومع أنه بقى زمناً معه ، فلم يستفد فائدة تذكر وكأنما لم يقدر له أن يتعلم على معلم طول حياته .

وبينما كان فى صحبة المسيو لمتر وصل إلى (أنسى) شاب اسمه (فنتور) ادعى معرفة الموسيقى وأظهر عند التجربة كفاية ممدوحة . وما أسرع ما تعلق روسو به عندما رآه . تعلق به تعلقه (بباكل) وبغيره من قبل . وكان فنتور متعلماً ذكياً له فى المجون . وازداد تعلقه به حتى أخذه معه يوما إلى مدام دفارانس فلما رأته وحادثها رأته شخصاً فاسداً فحرمت على روسو أن يجىء به لمنزلها مرة أخرى ونصحت إليه ألا يصاحبه .

وفى هذه الأثناء قام سوء تفاهم بين مسيو (لمتر) ورؤساء الكتدرائية أساسه ما فى نفوس هؤلاء الرؤساء من الكبرياء والعظمة واعتبارهم من ليس من رجال الدين فى مركز ضعة إلى جانبهم . فصمم (لمتر) على الهرب حتى يتركهم فى حيص بيص خصوصاً وقد كان عيد الفصح مقتربا يومئذ . وفاتح مدام دفارانس عزمه ولما يئست من إمكان صده عنه رأت أن تعينه بمن ينقل معه متاعه فعهدت لروسو بهذه المهمة وخرج مع أستاذه بليل . واجتازوا سويسرا إلى فرنسا حيث كان (لمتر) ذاهبا إلى باريس بلده ومسقط رأسه . فلما وصلا إلى ليون عاودت (لمتر) نوبة عصبية من النوبات التى تعاوده لإدمانه شرب الخمر لكنها عاودته هذه المرة بقوة فأرعى فمه واحمرت عيناه وسقط إلى الأرض لا يعى . فصاح روسو حتى إذا اجتمع الناس لم يكن منه إلا أن تركهم وترك صاحبه وعرج لا يلوى على شىء قاصداً تركه وشأنه .

وهذه هى الجريمة الثانية بعد جريمة اتهام (ماريون) كذباً بسرقة شريط الرأس وإن تكن أقل منها شناعة وفظاعة . على أنها استدعت من روسو أسفا واستلزمت منه استدامة التوبة عنها . وإنها فى ذاتها . مضافة إلى هذه إلى الغريبة التى سبق مرورها بالقارئ لتدل على حساسية مريضة وعقل غير منتظم . والعجيب أن هذه الميول وتلك الحساسية لزمت روسو طول حياته وكانت سبب عظمته ومصدر فلسفته .

وما لبث أن ترك مسيو لمتر حتى فكر فى الرجوع إلى (أنسى) واتخذ طريقه توًّا إليها . فلما بلغها وذهب إلى المنزل لم يجد مدام دفارانس وعلم أنها سافرت إلى باريس لمهمة لم يتح له أن يقف عليها . فهمه ذلك واستثار شجنه وزاد من أسفه لتركه مسيو (لمتر) على نحو ما فعل . غير أنه لم يبق على ذلك طويلا وسرعان ما رجع

فبحث عن صديقه فنتور الذى أحسن لقاءه وقبل أن يبقى جان جاك مقيما معه وجعلا يقضيان معظم النهار مفترقين ، فنتور فى جمعيات (أنسى) ومع سيداتها اللاتى بدأن يتعشقنه وروسو فى جولاته وسط الطبيعة وأحلامه التى لا تنتهى .

فى هذه الأيام عرف مدموازل جالى ومدموازل جرافنريد . وإنى لأحبس قلمى الآن لأترك روسو يقص على القارئ ملقاه بهما وتوطيد معرفته إياهما فى الحكاية الآتية التى بلغت أقصى حدود الإبداع فى الكتابة فلا يكاد يوجد فرنسى لا يعرفها قال :

« تبدى لى الفجر يوما بديع الجمال فارتديت ملابسى على عجل وخرجت مسرعاً أريد المزارع لأرى مطلع الشمس . فدقت تلك اللذة فى كل بهائها : لبست الأرض زخرفها وازينت بالزهر والعشب وزادتها البلابل زخرفاً وبهجة . والطير كلها تنادى تودع الخريف وتحيى مولد يوم صيف جميل . يوم من تلك الأيام البديعة التى لا يراها الإنسان فى سنى والتى لم تر أبداً فى هذه الأرض المكتئبة التى سكنها اليوم .

« وابتعدت عن المدينة على غير شعور منى وتزايد الحر فالتجأت إلى ظل أشجار تحيط غديراً . ثم سمعت وقع حوافر خيل فأصوات بنيات تبين عليهن الحيرة وإن لم يمنعهن ذلك من الضحك عن قلب طيب . فالتفت فناديننى باسمى فاقتربت فإذا بى أرى طفلتين من معارفى هما مدموازل جرافنريد ومدموازيل جالى وكانتا لم تستطيعا إكراه جواديهما على عبور الغدير لقلة دربتهما فى الركوب .

« وكانت مدموازل جرافنريد طفلة من (برن) غاية فى الرقة دفعها حنون سنها فتركت بلدها وأقامت مع مدموازل جالى التى أخذت على أمها عهداً أن تبقى معها هذه الصديقة الرفيقة حتى تستقر على حال .

« أما مدموازيل جالى فكانت أصغر من صاحبتها سناً وأكثر جمالا ويشوب هذا الجمال إبداع ودقة . وكانت صغيرة الحجم تامة التكوين فى وقت معا . أى فى أجمل اللحظات التى تمر بها كل فتاة . وكان بينهما حسيد حب حلو ضمن حسن علاقتهما بقاءه ما لم يعكر صفوه محب متعشق .

« وكانتا ذاهبتين إلى تون Thones حيث يقوم قصر قديم مملوك لمدموازل جالى . فاستعانتا بى كى أستعدى الخيل الغدير لعدم استطاعتهما ذلك وحدهما .

فأردت أن ألهب الخيل بالسوط لكنهما خافتا عليّ الرفس وعلى أنفسهما السقوط . فلجأت إلى وسيلة أخرى فأمسكت بلجام حصان مدموازل جالى وشددته ورائى وخضت الغدير حتى بلغ الماء منتصف ساقى . وتبعنا الحصان الآخر من غير مشقة . فلما فرغنا من ذلك أردت أن أحييهما وأذهب . فتسارّتا ثم وجهت مدموازل جرافنريد الكلام إلىّ قائلة : كلا كلا لن تفلت منا هكذا . لقد ابتللت فى خدمتنا فيجب عدلاً أن نأخذ على مسؤليتنا إعادتك إلى سابق حالك . يجب يا صاح أن تجيء معنا . إنا نستوقفك سجيناً ، فدق قلبي وحولت نظرتى إلى مدموازل جالى فأضافت ضاحكة مما أنا فيه من الاختلاط : نعم نعم أسير حرب ! امتط الجواد وراءها فإنا مسئولتان عنك » فقلت : لكن يا آنسة لم أتشرف من قبل بمعرفة السيدة والدتك فماذا عساها تقول حين ترانى : فأجابت عنها مدموازل جرافنريد : أمها ليست فى تون ونحن وحدنا وسنرجع الليلة وترجع معنا .

« ليست الكهرباء أسرع أثراً من هذه الكلمات على نفسى . وقد اهتز قلبي سروراً ساعة امتطيت جواد مدموازل جرافنريد . وطوقتها بذراعى فازداد قلبي اهتزازاً حتى شعرت هى به . ولقد أخبرتنى أن قلبها هى الأخرى يهتز خيفة أن نقع .

« ودفعنى السرور بالنزهة وحديث الطفلتين لأتحدث أنا كذلك . ولقد قضينا حتى المساء لا نسكت لحظة . وأمتعتانى بالطمأنينة فبقى لسانى يتكلم بمقدار ما تنطق عيناى وإن لم يقل ما إليه ترميان .

« ولما وصلنا إلى تون وزال ما بردائى من بلل طعمنا غداءنا ثم قمنا لتحضير أمر العشاء . . وتعشينا وجلست بينهما فأى عشاء . ألا ما ألذ ذكراه .

ومضى اليوم وقد لعبنا به على ما شئنا وبكل وقار . فلم تصدر كلمة مبهمة ولا عبارة سيئة » .

وافترقوا على موعد بينهم . ولكن ما أقل ما تصدق مثل هذه المواعيد . فرجع جان جاك إلى حياته مع فنتور يقضى النهار هائماً يتمتع بالطبيعة وجمالها ويؤوب الليل إلى بيت صاحبه يقضيه سعيداً مرتاح الفكر والخاطر .

وطالت غيبة مدام دفارانس ففكرت خادمتها (مرسيريه) فى الرجوع إلى بلدها (فريبور) وسألت جان جاك أن يصحبها . وذهبا جميعاً ومرا فى

طريقهما (بنين) حيث أبوه فعرج عليه وترك عنده بعض متاعه وودعه وذهب مع الخادمة حتى دار أهلها . وبعد يومين أقامهما عندها تركها إلى لوزان ووصلها خالى الجيب لا يملك فلساً فأكل ونام عند رجل أنف أن يأخذ منه فى الصباح رهناً عما استحق عليه .

لكن تسول شاب قوى حال لا يمكن أن تدوم . فذهب إلى نُزل وادعى عند صاحبه أنه مغن ماهر وأن فقراً يقعد به عن كل شيء . ولقد مر بالقارئ أنه أخفق فى تعلم الموسيقى وفى الغناء . لكنه لم يجد غيرهما مرتزقاً . ووعده صاحب النزل خيراً ونشر عنه ورتب معه ليلة طرب ليغنى فيها وحصل له على بعض تلاميذ (كانوا بلداء بمقدار ما كان جاهلا) . ولما ذهب إلى هذه الليلة وغنَّى لم يكن من السامعين إلا كل ساخط عليه مشمئز منه. وأورثته الخيبة ألماً وحزناً لم يكن له عنهما من عزاء إلا بعض مكاتبات كانت ترد إليه من صاحبتيه جالى وجرافنريد فتحمل إليه ريحهما وتعزيه بعض الشيء عن همه .

صرف هذا الفشل عنه تلاميذه وهدده بفقر أكثر من عدمه الأول . فعوَّل على ترك لوزان وعلى أن يمر ببلد مدام دفارانس ، وتوجه إلى (قيڤى) يمتع الناظر منهـا بذلك الجمال الساحر الذى تمتاز به . وأقام بها يومين أحبها فيهما حباً استرجعه إليها مرات فى حياته وجعله يتخذ منها فيما بعد مقر أبطال روايته الكبرى (هلويز الجديدة) .

وأخيراً ساقه طالعه وألقت به عصا التسيار إلى نوشاتل ، وهو يدعى دائماً أنه موسيقى ماهر . لكنه كان يعلم علم اليقين أن الفشل ينتظره لا محالة . لذلك ما لبث أن رأى قسيساً إيطالياً لا يتكلم الفرنسية حتى تقرب منه واتصل به كمترجم . وكان القسيس داعياً يطوف أنحاء أوربا يجمع الصدقات من كبار رجال الحكومات ليردها على بيت المقدس . ولقد سر روسو أكبر السرور أن علم أنه يرمى من هذه السياحات المترامية ليصل أخيراً إلى مهبط الوحى ومسقط رأس السيد المسيح . لكن أحلامه لم تتحقق فإنه بعد أن مر مع القسيس (بفريبور) و(برن) وصلا إلى (سولير) حيث كان المركيز (دبناك) قنصلا لفرنسا . فلما استقبلهما ورأى روسو وعرف منه حقيقة حاله منعه من الاستمرار مع صاحبه وحجزه عنده ولم يعطه الفرصة حتى ولا ليودعه .

وبعد زمن قضاه فى بيت القنصل صمم أهل البيت على إرساله لباريس سكرتيراً لأحد الشبان المشتغلين فى الوظائف العسكرية من أقاربهم . وأعطى ما يلزمه للسفر وراح يقطع الطريق بين بدائع الطبيعة وغرائب أحلامه حتى وصل باريس وكانت فى خياله مدينة بابلونية ليس فيها إلا شوارع فخمة وإلا قصور من المرمر والذهب . فلما تبدت له أطرافها وبها منازل صغيرة سوداء تمر من أمامها طرقات ضيقة قذرة يسير فيها المتسولون والباعة اضمحلت أحلامه وتلاشت أوهامه وداخله إحساس اشمئزاز بقى عنده بعد ذلك برغم ما ظهر له من إبداع فيها وجمال .

وأحسن من قدم نفسه إليهم استقباله ، إلا جماعة من كان يريد الخدمة عندهم . فاعتراه هم كبير . ولولا أن سيدة اهتمت له وبحثت وإياه عن مدام دفارانس وعرفت أنها سافرت لكان أسوأ حالا وأتعس مصيراً . وما كاد يعلم بسفر (أمه) حتى غادر باريس مسروراً بفراقها ورجع قاصداً السافوا ليبحث عنها . فلما مر بليون قصد بيت مدموازل دشاتليه إحدى صاحبات مدام دفارانس آملا أن يقف منها على خبر صديقته . فعلم أنها غادرت ليون من زمن . لكن مدموازل دشاتليه لم تقض عليه بالبحث عن محل وجود صاحبتها .

كان روسو يومئذ قد وصل من الفقر إلى قراراته : وأبى عليه غروره أن يظهر ذلك لمضيفته فترك بيتها وانطلق هائماً وسط المدينة يبيت مرة فى العراء ويعرض نفسه أخرى للمبيت بمنزل قسيس يراوده عن نفسه قصد أن يفسق به . وفيما هو سائر يغنى بعد ليلة قضاها تحت السماء قابله الميسو روليشون وعلم منه أنه يقدر على نقل الموسيقى . فاستخدمه عنده زمناً فلما فرغ من العمل رجع ومعه ما يقيم صلبه وبقى مع مدموازيل دوشاتليه أياماً يستفيد من ملاحظاتها حتى إذا جاء الخبر أن مدام دفارانس مقيمة فى شمبرى ودع مضيفته ومضى .

وصل (شمبرى) فوجد أمه مقيمة فى بيت أقل فخامة بكثير من بيتها فى (أنسى) . ووجدها وقد أعدت له غرفة من غرفه . وكان (كلودآنيه) لا يزال متصلاً بمدام دفارانس اتصال خدمة واتصال مخالة ومزاولة . فلما علم روسو بذلك لم يمتعض ولم يتضايق بل تزايد حبه لآنيه وعطفه عليه . قال : « وكذلك كان من الأدلة على سمو أخلاق هاته المرأة الرقيقة أن يرتبط جميع محبيها برابطة المحبة فيما بينهم . وأن تخضع الغيرة ويخضع التنافس إلى عاطفة الود التى توحى هى :

لهم جميعاً فلا يريد أحد منهم بالآخر شرًّا . هذا هو حكم روسو وهو حكم ينطق بعدم اعتداده بالفضائل المقررة .

ووجدت هي له في تعداد الأنفس وقتئذ وظيفة اشتغل بأدائها سنتين تعلم في خلالهما الحساب والرسم كما انكب في أخريات أيامهما على القراءة انكباباً شديدا . ثم ترك التعداد وانقطع للموسيقى وكان قد بلغ منها بعض المبلغ لكثرة ما زاولها أيام كان لها معلماً . وكثر لذلك تلاميذه وانقطع لهم وكان من بينهم فتيات غاية في الجمال ومن بين أمهات هاته الفتيات من افتتن بشكل حان جاك وأردن منه ما لم يكن يفهم إلى ذلك اليوم من صلات الجنسين . فلما رأته مدام دفارانس على هاوية الوقوع فيما تدفعه إليه سنه من الشهوات لم تجد إلا طريقا واحدا ينجيه من هذا الشر . وذلك بأن تهب له نفسها . وقبل هو هذه الهبة فدنس حبه الطاهر وأصبح شريكا لكلود آنيه من غير ضجر ولا ملال .

والمدهش أنه يبرر في اعترافاته عمل مدام دفارانس بقوله إنها إنما كانت تريد به الخير فيما فعلت . ذلك لأنها لم تكن تهتم بالعلاقة الشهوية أو تعيرها أية أهمية . فلم يكن في عملها ما يمكن اعتباره خطيئة من جانبها ولا كان في مخاللة من تسميه ابنها ما يمكن أن يمس أخلاقها . واعتذار روسو عن معشوقته الكريمة على هذه الطريقة لا يقل عن حكمه السابق دلالة وبيانا .

وبعد زمن قضاه شريكاً لكلود آنيه في مضاجعة مدام دفارانس توفي كلود مأسوفا عليه منهما جميعاً وأصبح روسو سيد البيت والمكلف بتصريف أموره . وإنه ليعزو ما عرف عنه من بخل طول حياته إلى ذلك الوقت حين اضطره النظر في شؤون (أمه) للتدبر والحذر . وأصبح مركزه كرفيق لمدام دفارانس معقولاً بعض الشيء مهما ناله من اللوم .

ولطول ما اشتغل بالموسيقى راق له أن يؤلف فيها . لكنه لم يكن من العلم بها بحيث يستطيع الوصول لذلك وحده . ولم يجد في شمبري ولا ما جاورها من يعلمه إياها . فذكر أن صديقه فنتور تعلم على أستاذ في (بزانسون) اسمه (بلانشار) فصمم على الذهاب إليه . ولم تقف مدام دفارانس دون إرادته بل ساعدته عليه وأعدت له عدته فلما مر في طريقه (بنين) عهد إلى أبيه أن يرسل له متاعه لكن متاعه صودر على حدود فرنسا بحجة أن عمال الجمرك وجدوا بين أو

ورقة فيها ما يطعن على الكثلكة وخشوا نشرها فى البلاد فاضطر روسو بعد مقابلته المسيو بلانشار أن يرجع على عقبه إلى شمبرى ولم يكسب من سفرته شيئاً . .

أقام فى شمبرى يتمتع وحده برفيقته ويعلم الموسيقى ممتعاً بالسكون الأعم والراحة الكاملة . وأتيح له يومئذ تلميذ شغف به هو المسيو (دكونزييه) . وكان شاباً ذكياً متعلماً مطلعاً ولا يأخذ ميله للموسيقى الكثير من وقت جان جاك . بل كان يقضى معظم حصته فى الحديث عما ظهر من الكتب وبالأخص من كتب الأدب . ولقد قرأ مع روسو أكثر خطابات فولتير مع فردينان البرنس البروسى . وكان سبباً فى تعلقه بقراءة ما يظهر من كتب الأدب . فلما ظهرت (خطابات فولتير الفلسفية) جاء عليها وتعلق بها أى تعلق .

وبينا هو فى متاعه فاجأته حادثة كانت مقدمة لحادثة أخرى زادت إلى سابق أمراضه . ذلك أنه كان يوماً يحضر دواء فى زجاجة فأصاب عينيه بعض ما فيها فاعتل بهما ستة أسابيع كان لا يبصر فى أثنائها شيئاً . وما كاد يشفى من هذا المرض حتى أصابه مرض آخر ألزمه الفراش وأتى على قواه . فعنيت به مدام دفارانس خير عناية . لكنه بقى بعد إذ أبل من مرضه زمناً طويلا فى دور النقاهة . هنالك رأى أن البقاء بين جدران شمبرى لا يمكن أن يلائم صحته أو يوافق مزاجه فطلب إلى صاحبته الخروج معه إلى الريف . وبعد تردد عزما على الذهاب إلى (الشارمت) على مقربة من شمبرى مع إبقاء منزلهما فى هذا البلد .

وقضى جان جاك فى (الشارمت) أسعد أيام حياته . وإلى القارئ كلمة من اعترافاته فى وصف ذلك الزمن من عمره قال :

« هنا يبتدئ الزمن القصير السعيد من أزمنة حياتى . هنا تجىء البرهات السريعة الهادئة التى تجعلنى أقول إننى حييت . إيه أيتها اللحظات الثمينة المأسوف عليها . ارجعى فاسترجعى مسراك الهنى . انسابى فى ذاكرتى إن استطعت أكثر بطئاً مما كنت فى سرعة مرك . ما عساى أعمل لأطيل كما أريد هذه الذكرى البسيطة المؤثرة ولأقول وأعيد الأشياء نفسها.ولا يمل قارئ بإعادتها كما لا أمل أنا باستعادة ذكراها ؟ ولو أن ما كان يومئذ كونته الوقائع والأعمال والكلمات لاستطعت وصفه وتبيانه . ولكن ماذا أذكر عن شىء لم يقل ولم يعمل بل ولم يأخذ أى مكان من الفكر ولكنه ذيق بل أحس وليس عندى ما استظهر به قيمة سعادتى غير ذلك

الإحساس نفسه ؟ كنت أستيقظ مع الشمس وكنت سعيداً . كنت أتنزه وكنت سعيداً . كنت أرى أمى وكنت سعيداً . وكنت أتركها وكنت سعيداً . كنت أقطع الغابات والأحراش وكنت أجوب الأودية وكنت أقرأ وأسكت وأشتغل فى الحديقة وأجمع الفاكهة والسعادة تتبعنى حيث كنت ولا تستطيع تركى لحظة لأنها لم تكن فى شىء معين بل كانت ممتزجة بنفسى وروحى » .

على أن انغماسه فى السعادة لم يقطع على المرض طريق سريانه ولم يعد إلى المريض صحته . بل لقد تزايدت آثاره بما زاد روسو يأساً من الحياة وطلباً للموت . ومن بعض هذه الأمراض ما لا أستطيع وصفه بأبلغ من كلمات روسو نفسه . وها هى ذى :

« بينا أنا ذات يوم ، ولم أكن أسوأ حالاً منى عادة . بينا أنا أرتب منضدة إذا بى أحسست بثوران فى جسمى أشبه شىء بعاصفة هاجت دمى وامتدت منه فى لمح البصر إلى كل أعضائى . وابتدأت شرايينى تدق بقوة لم أقف عند الإحساس بها بل كنت أسمعها ، وصحب ذلك دوى فى آذانى تنوع إلى ثلاثة أو أربعة أنواع . فصرير قوى أصم . وخرير أكثر وضوحاً كأنه خرير الماء الجارى . وصفير حاد . وذلك الدق الذى سبقت الإشارة إليه . وتبينت أمامى الدقات من غير حاجة منى لأحس أعصابى أو ألمس جسمى بيدى . ومنع على ذلك الدوى الداخلى الشديد ما كان عندى قبل يومئذ من دقة الأذن وجعلنى وإن لم أكن أصم قليل السمع ، كما بقيت من ذلك الحين » .

وأعقب ذلك عند روسو قلقاً وأرقاً . وأصبحت الحياة عنده محلا لليأس كما أصبح انتظار الموت من بعض آماله .

جاء الشتاء واضطر روسو للرجوع من الشارمت حيث الطبيعة البكر والمناظر البديعة التى امتازت بها السافوا ودخل كُنه فى (شمبرى) ووثق علاقته بالدكتور (سالومون) الذى أصبح طبيب البيت . وكان الدكتور سالمون رزيناً مطلعاً فصرف روسو معظم وقته فى الاستفادة من علمه ، كما أنه استمر دائباً على القراءة والبحث . وفى هذه المرة جعل بحثه علميًّا مرتباً مبنيًّا على قواعد متينة تؤدى إلى الإلمام بالعلم والإحاطة بما تعلق به . وكان له فى مطالعاته عزاء عن ضيق البلد الذى يعيش فيه ، كما أنها كانت تنسيه بعض ما هو فيه من مرض وألم .

فلما انتهى الشتاء ورجعوا إلى الشارمت عمل على إضافة بعض أعمال يدوية إلى قراءاته . غير أنه لما اشتغل فى الحقل أحس بضعفه المطلق عن القيام بأعماله التى أربت على قواه والتى كانت تورثه الخفقان والدوار . فاشتغل بتربية الحمام وجعل يملأ به من فراغ وقته مالم تشغله المطالعة .

وأصبح يعيش إلى حد ما عيشا مرتباً منتظماً : « فكنت أستيقظ كل يوم قبل مطلع الشمس وأصعد إلى أعناب تجاورنا ينساب بينها طريق جميل تحيط به الكروم حتى يصل إلى شمبرى . وهناك فى نزهتى كنت أقيم صلواتى . ولم تكن هاته الصلوات مجرد كلمات تنطق بها الشفاه بل كانت صعوداً مخلصاً بقلبى إلى مبدع هاته الطبيعة الحلوة التى تمتد أمام ناظرى . وما أردت يوماً أن أصلى لله فى غرفتى إذ كان يخيل إلىّ أن الجدران ونحوها من الأشياء الضئيلة التى صنعتها يد الإنسان تحول بينى وبين الله . وإنما وددت دائماً أن أشاهد صنعه فى حين ترتفع قلبى إليه . وكانت صلواتى طاهرة وتستحق لذلك إن صح القول أن تجاب . . على أن عبادتى إنما كانت مشاهدة وإعجاباً لا طلباً . . ثم أرجع من نزهتى من طول الطرق تشغلنى مناجاة ما يحيط بى ويسحرنى من مناظر الحقول بلذة وشهوة . هاته المناظر التى تسترعى وحدها القلب والعين فلا يكلان أبداً عن مشاهدتها » .

فإذا رجع جلس إلى (أمه) يحادثها وتحادثه ثم يتركها إلى كتبه حتى تحين الظهيرة ويجىء موعد الغداء . . ويقضى بعد الظهر فى زيارة طيوره ومحادثة أصحابه وقراءة كتبه .

وكان يومئذ قد بلغ رشده ففكر فى المطالبة بميراثه عن أمه وذهب إلى جنيف لهذه الغاية . وأسعده الحظ فلم يلق فى سبيله العراقيل التى لا تفتأ تقوم كلما طرحت مسألة أمام القضاء . واقتسم ذلك الميراث الضئيل مع أبيه وأخذ نصيبه وتصرف فيه واشترى بقسم من ثمنه كتباً ثم حمل الباقى إلى مدام دفارانس . ورجع إلى العيش معها وبين رياضاته ومطالعاته .

وفيما كان يدرس كتب الطب دخل إلى نفسه الاعتقاد أنه مصاب بمرض فى القلب هو أصل كل بلواه . فعزم على علاج نفسه من ذلك المرض . لكن أطباء بلاده لم يكونوا بحيث يصلون إلى معرفة دوائه . فذكر أن (كلود آنيه)

كان قد أخبرهم بعد رجوعه من سفره إلى مونبلييه أن الدكتور « فيز » يداوى مرض القلب بدقة ومهارة . هنالك صمم على الذهاب إليه . ولم يقف دون تصميمه أى حائل لأن ما حمل من ميراث أمه ضمن نفقات سفره . كما أن إرادة مدام دفارانس لم تكن لتقف دون سفر غايته أن يعود سليماً معافى .

وأعد أهبته للسفر وسافر حتى إذا بلغ جرنبل تقابل مع عروس مسافرة مع حاشيتها وصحبتها سيدة تدعى مدام (دلارناج) . واستمر فى الطريق الذى فيه يسيرون من غير أن يكون بينه وبينهم أى تعارف . لكن السفر من شأنه أن يخلق المعرفة . فجعلت السيدتان تسألان كل صباح عن صحة هذا المسافر معهما بل لقد سألتاه أحياناً كيف قضى ليله .

ومن غرائب جان جاك التى لا تنتهى أنه لما سئل عن اسمه وبلده ادعى أنه إنجليزى ذاهب للتداوى بمونبلييه . فكأنه برغم تقدمه فى العلم والسن وبرغم حسن الحال الذى كان فيه لم تزل تعاوده نزوات الكذب التى اعتاد صغيرا .

وتركته العروس وحاشيتها عند رومان وتركت معه مدام دلارناج . فلم يمض زمن حتى وقع حبه من قلبها أى موقع . وقع منها بحيث لم تستطع بعد يوم من انفرادهما وبرغم خجله الشديد دون أن تبهه نفسها وتجعله يقول بعد سنين من ذلك فى اعترافاته : « ولولا مدام دلارناج لمت من غير أن أعرف الملذات » .

وكان اسمه عندها (ددنج) وهو الاسم الإنجليزى الذى اختاره لنفسه وبقيت معه أياما قصيرة أنسته فيها مرضه وألمه . فلما حان لهما أن يفترقا أخذت عليه عهداً أن يعرج عليها « بسانت انديول » حين رجوعه من مونبلييه ووعدها بذلك وعداً صادقاً . ولما وصل إلى مونبلييه استمرت المخاطبات بينه وبينها من غير انقطاع .

على أنه لم يجد فى مونبلييه فائدة تذكر بعد إذ أقام بها ستة أسابيع كاملة . وكل ما ظهر له أن الأطباء الذين بها والدكتور (فيز) نفسه لا يعرفون مرضه بل يدعون أنه ليس مريضاً . فصمم على الخروج منها والذهاب إلى سنت انديول حيث صاحبته التى أنسته فى سابق تعارفهما كل ألم . لكنه لما تنصف الطريق فكر فى أمره ونسيانه المشين لمدام دفارانس وفيما يؤول إليه حاله إذا هو ذهب إلى مدام دلارناج وخشى أن يفتضح أمره وألا يجد هناك من السعادة ما وجد من قبل

فى شمبرى وفى الشارمت . لذلك عدل عن عزمه ومضى قاصداً السافوا مقره القديم .

ووصل إلى شامبرى . فلما قابل مدام دفارانس قابلته ببرود أشد ما يكون مغايرة لما كانت تلقاه به من الجذل قبل يومئذ . فهمه ذلك كثيراً . ثم عرف أن شاباً آخر أخذ مكانه وأصبح عشيق « أمه » المحبوبة لديه .

طبيعى أن يهتاج روسو أمام هذا المنظر الخسيس . طبيعى أن يدق برأس لهاته الفاجرة الأرض . طبيعى أن تعروه جنة تدفع به إلى كل المواقف . لكن شيئاً من ذلك لم يكن . وإنما شعر بشىء من الأسى دفعه إلى أن احتجب فى غرفته بعد ما عرضت هى عليه أن يشارك « فنتر نريد » فيها كما شارك كلود آنيه من قبل . وقد رفض مملوءاً أسفاً وحزناً .

وبقى فى البيت ولم يسافر إلا بعدما أظهر له كل من فيه الإغضاء عنه بل الامتعاض منه . هنالك نفد صبره وأخبر صاحبته القديمة بعزمه على السفر إلى ليون . فابتهجت لذلك وزودته بخطاب لصديقة لها كان سبباً فى اشتغاله مربياً لأولاد المسيو (دمابلى) حيث أقام يعلمهم سنة كاملة .

ولقد لقى مدة إقامته رحباً وسعة . ومع أنه أظهر العجز المطلق دون القيام بالمهمة التى عهد بها إليه كما أظهر عدم الاستعداد لما أرادت مدام دمابلى أن تعوده إياه من رقة المعاشرة ، فإن رب الدار لم يبادله إلا كل عطف وود . بالرغم من ذلك فقد تاقت نفسه للنبيذ مرة فلم يجد من غضاضة فى اختلاس زجاجات مما فى البيت ولم ينسه طول الزمن الالتجاء إلى السرقات الضئيلة التى اعتاد أيام صغره وأيام كان فى الضنك والضيق .

ولما استحس من نفسه العجز عن القيام بمهمته استقال منها فأقيل . ورجع إلى الشارمت حيث قابلته مدام دفارانس ومعها صاحبها الجديد بالفتور الذى قابلته به المرة السابقة . فلما أقام عندها زمناً لاحظ أن حالها تتدهور لكثرة ما كان يكلفها (فنتزنريد) من النفقات وصمم على العمل لإيجاد ما يقيمه ويعينها . فعنى بوضع طريقة جديدة لرقم الموسيقى حتى إذا استكملها فكر فى الذهاب إلى باريس لعرضها على الأكاديمية هناك . ولما استتمت هذه الفكرة وأصبح قديراً على إنفاذها تأهب للسفر . فترك الشارمت متخذاً إلى باريس طريق ليون حيث

قوبل بالترحاب والتحية وحيث زود بالخطابات إلى جماعة من كبار الرجال فى العاصمة الفرنسية ممن يؤمل فيهم معونته .

* * *

هنا ينتهى العصر الأول من حياة روسو . هنا ينتهى الزمن الذى قضاه مشتتاً متشرداً لا صناعة له ولا حرفة يعيش كَلًّا على غيره وعيالا على غير أهله . وإذا كان لم يقم يوماً من أيام حياته مقام ثبات واستقلال فإن ذلك الزمن الذى مر بالقارئ ذكره هو أكثر أزمنة حياته تشرداً وضياعاً .

وهنا نترك روسو شاباً حلو الطلعة دمث الخلق قوى الحس متوقد الخيال عظيم الحياء والخجل قليل الاعتداد بالفضائل العامة سريعاً إلى الكذب والسرقة لا يحسن عملا خاصاً يمتاز به . ونتركه مريضاً عانى الآلام أنواعاً وقاسى الأمراض ضروباً . فأصابه فوق ما منى به من أول أيام حياته من انقباض المثانة والخفقان والدوار وما تبعهما من الأرق وحب الوحدة .

نتركه ونترك جانباً صلاته النسائية وجولاته القديمة لنفكر وإياه فى الانتقال إلى العاصمة الهائلة طلباً للثروة والعظمة .

٣

ترك روسو مدام دفارانس مع رفيقها الجديد (فنتزنريد) وسافر قاصداً باريس ليعرض على أكاديميتها طريقته فى رقم الموسيقى . فمر فى طريقه بليون ومكث بها أياما زار فيها أصدقاءه العديدين الذين عرف أيام كان معلماً لأبناء المسيو (مابلى) . ولقد استفاد من هذه الزيارات كثيراً حيث زود بخطابات تقدمه إلى جماعة من كبراء باريس ومن يستطيعون نفعه . فأعطاه المسيو (مابلى) خطابات إلى (فونتنل) وإلى الكونت (دكايلوس) وقدمه المسيو (بورد) إلى الدوق (ريشليو) الذى كان يومئذ بليون والذى وعد جان جاك أن يراه فى باريس .

ولم يفته فى ذلك الزمن القصير الذى قضاه بليون أن يتعلق بمدموازل « دلاسير » حتى يشغل بها خياله زمنا ما . ولقد كانت هاته الآنسة فى مثل مركزه الاجتماعى لا تملك شيئا غير جمالها ومعرفتها . ولولا أنها كانت مخطوبة لأحد التجار لما امتنع عن التفكير فى البقاء معها كما كان مع مدام دفارانس وكما فكر فى أن يكون مع مدام دلارناج .

وأخيرا ارتحل حتى وصل باريس . ولم يرها هاته المرة بالعين التى رآها بها لأول ما نزلها . بل لقد ظهر له ما فيها من إبداع وجمال متحليا فى أحسن مظاهره . ولكأن هذه المدينة الكبيرة بما ينبعث عنها من الخيال الغريب للنفس قبل أن تترتب فى الذهن فكرة صحيحة عنها لا تظهر بما هى عليه من عظمة لأول مرآها . فإذا غادرها الرائى ورجع إليها وقارنها بما رأى تبدى له كل ما فيها من معانى الإبداع والعظمة .

قال : « حللت باريس فى خريف سنة ١٧٤١ ولا أملك إلا خمسة عشر جنيهاً فرنسياً وروايتى (نارسيس) واقتراحى بشأن الموسيقى . لذلك كنت فى أشد الحاجة للاستفادة من وقتى الضيق فأسرعت إلى عرض خطابات التقدمة . والشاب

الـذى يصل باريس ويكون مقبول الشكل ويظهر عليه أثر المواهب واثق دائماً من أن يجد قبولا حسناً . وكان ذلك شأنى » .

وكان من بين من تقدم إليهم يومئذ المسيو (بوز) ومن طريقه عرف المسيو (ريومير) الذى مكنه من عرض طريقته فى رقم الموسيقى على أكاديمية العلوم . ولم يجد أعضاء المجمع بأساً من النظر فى الاقتراح بعد أن تفحصه لجنة عينت لهذا الغرض . وبعد مناقشات طويلة بين أعضاء هذه اللجنة وبين روسو انتهى الأمر بعدم قبول الاقتراح ورجع روسو يعض بنان الندم على ما أضاع من وقته ويذرف دموع الأسى على انهدام صروح أحلامه .

وبعد فشله هذا كتب كتاباً يعرض فيه على الرأى العام اقتراحه طالباً إنصافه مما وقع به من الحيف والظلم فلم يكن كتابه أكثر رواجاً وقبولا عند الناس من طريقته أمام اللجنة . وضاع عليه من جديد ما صرفه من الوقت والمجهود فى كتابة هذا الكتاب .

غير أن مساعيه هذه وإن لم تفده مباشرة إلا أنها سمحت له بمعرفة عدد غير قليل من العلماء وذوى الرأى فى البلد . مع هذا فقد اضطره فقره ليقصر زياراته على عدد قليل من الناس حتى لا يعرّض ماء وجهه لكل إنسان . ولا يعجبن القارئ لذلك بعد أن عرف ما اجتمع فى روسو من الحياء والغرور . فكان يزور ماريفو وفونتنل . وقد اطلع الأول على روايته (نارسيس) فأعجبته وأراها لشاب من سن جان جاك يومئذ هو (ديدرو) الذى صادق روسو بعد ذلك زمناً غير قليل .

وكان يقضى القسم الكبير من فراغه فى لعب الشطرنج بقهوة (موجى) . ومرت الأيام على هذا النحو يقضيها بين أصحابه وبين الشطرنج ويرى بعينه نفاد ثروته الضئيلة . وفيما هو يوماً كذلك وقد أفلس أو كاد قابله القس (كاستل) وقال له : « إذا كان الموسيقيون والعلماء لا يتبعون طريقتك فادلف إلى النساء فقد يصادفك النجح عندهن . ولقد سبق لى أن حدثتك عن مدام (دبزنفال) فاذهب إليها من جانبى وسترى عندها ابنتها مدام « دبرجلى » وهى سيدة ذات ذكاء وعقل ومدام (دوين) وهى كذلك سيدة عاقلة تود بعد أن خاطبتها فى أمرك أن تراك وستحسن لقاءك . واعلم أن الإنسان لا يستطيع فى باريس شيئا إلا بمعونة النساء » .

وبعد شىء من التردد ذهب فزار مدام (دبزنفال) وابنتها فأحسنا رفده وطلبا

إليه أن يتردد عليهما . ولقد كانت علاقته بهما مما جعله يتوقع قرب الفرج والخروج مما كان فيه من ضنك وبؤس .

وفى هذه الفترة زار مدام (دوين) وقدم لها كتابه الذى دافع به عن طريقته فى الموسيقى فقبلت هديته وأحسنت استقباله وخاطبته فى أمر اقتراحه مخاطبة علم بالموسيقى وحجزته عندها للعشاء . هنالك جن بها . ما لبث أن سمحت له بالتردد عليهـا حتى جعل يذهب إليها كل يوم ويتناول العشاء عندها مرات فى الأسبوع . ولما كانت من صاحبات الصالونات الفخمة التى يتردد إليها السيدات والكبراء والكتّاب أمثال فونتنل وبوفن وفولتير فقد استفاد روسو من زيارته لها أكبر الفائدة ، غير أنه كان على ما عرف القارئ عيا وسط الجماعات لا يستطيع التفوق فى الحديث ، بل ولا ينطق صواباً . لذلك كان أغلب وقته صامتاً لا يبين .

لكن تعلقه بمدام دوين لم يترك له الهدوء والسكينة . ففكر فى أن يكتب برسمها رواية موسيقية أسماها « الميزجالانت أى الشيطانات الرقيقات » . وبدأ عمله واستمر فيه . وقبل أن يتمه تعين بعناية مدام « دبزنفال » سكرتيراً « للمسيو منتاجو » قنصـل فرنسا بالبندقية فسافر إليها وكله الأمل فى مستقبل باهر . وما كان أسرعه إلى الأمل عند كل فكرة أو حادثة جديدة تصادفه . واستمر مشتغلا بالرواية التى يكتب وبالموسيقى التى كان يعدها لها .

ووصل إلى البندقية وتسلم أعماله وحاز ثقة القنصل الذى كان على ما يخبرنا روسو رجلا ضيق العقل ضئيل الفكر ضعيف الخلق حتى اختلف معه آخر الأمر خلافاً انتهى بانفصال جان جاك بعد ما حاز ثقة الجالية الفرنسية بسبب ما عمل جهده لخيرها : قال : « وكنت أعمل دائماً باستقامة وهمة ونشاط تستحق من جانب « القنصل » مكافأة غير التى نالنى بها آخر العهد. ويومئذ حان الزمن الذى يظهر فيه عملى مقدار ما حبتنى به السماء من مواهب وما أفادتنى إياه خير النساء من تربية وما حصلته بنفسى من علم . وقمت بأداء واجبى وخدمت فرنسا ولم أكن مديناً لها بشىء خدمة صادقة كما خدمت القنصل بعدل فى كل ما تعلق بى . وقمت بذلك برغم وحدتى وغيبة الصديق وانقطاع الناصح وقلة التجربة وخدمتى أمة أجنبية وبرغم أنى كنت محاطاً بحثالة من أهل السوء الذين كانوا يغرونني دائماً بمجانستهم خدمة لهم ، ولكى لا يكون وجود المثل الحسن قذى

فى عيونهم . ولقد استحققت لحسن قيامى بالعمل فى هذا المركز المحسود احترام الجمهورية واحترام جميع القناصل الذين كانوا يراسلوننا وعطف جميع الفرنسيين المقيمين بالبندقية وحصلت عليه » .

على أن حسن علاقته برجال القنصلية وشديد مقاومته لأهل السوء منهم لم يفده كثيراً واستطاع الأخيرون تغيير قلب القنصل عليه واستنفاد صبره هو حتى اضطروه لترك (هذا المركز المحسود) فخرج منه ساخطاً على نظام السفارات والحكومات وإن تعزى ببعض ما كان من عطف الناس عليه .

والغريب أن روسو لم يترك فى اعترافاته شيئاً عن أثر جمال البندقية على نفسه . غريب حقيقة أن يوجد هذا المولع بالطبيعة الوصاف ولآثارها الذاكر الشارمت وڤيڤى وغيرهما أطول الذكر وسط جمال هذا البلد الغريب ومبانيه الفخمة وعظمته ورقته ثم هو ينسى كل ما تعلق بذلك من أمره وشأنه .

لكنه إلى جنب ذلك لم ينس أن يذكر نوادره النسائية هناك . فبعد أن أقام زمناً طويلاً متبعاً أقسى نظام الطهر والفضيلة دلف مع صاحب له إلى بغىٍّ تدعى (البادونا) . ثم تقابل بعد ذلك مع فتاة اسمها (زوليتا) تركت فى نفسه أثراً يكاد يعدل ما يترك العطف الحلو والميل الرقيق من الأثر . ولقد كانت هذه المقابلة الأخيرة مثاراً فى اعترافاته لهذه الكلمة الجميلة الخالدة :

« دخلت غرفة البغى فكأنما دخلت معبد الجمال والحب وتبدى شخصها لناظرى لابساً ثوب القداسة . ولولا هذا الاحترام الذى كان عندى لما أحسست بمثل ما أحسست به أمامها . وما لبثت حين رفعت الكلفة بيننا وعرفت ثمن جمالها ونوالها حتى أسرعت أريد أن أجنى ثمرها خيفة أن تضيع منى . ولكنى شعرت فجأة بدل النيران التى كانت تأكلنى ببرد قاتل ينساب فى عروقى فارتعدت رجلاى وجلست أبكى كأنى الطفل .

« من ذا يستطيع أن يعرف سبب بكائى وما مر برأسى فى هاته اللحظة ؟ إنما قلت فى نفسى : هذا المتاع الذى أصرفه هو أبهى ما أبدعت الطبيعة وأنتج الحب . فعقلها وجسمها وكل ما فيها كامل وطيبتها وكرمها يوازيان جمالها ورقتها . يجب أن يكون الكبراء والأمراء عبيدها وأن تكون الصوالج تحت أقدامها . مع

هذا فها هى ذى متجولة بائسة مسلمة إلى الكافة يلهو بها ربان مركب تجارية ثم تجىء وتبقى نفسها بين يدى وهى تعلم أنى لست شيئاً » .

فى هاته الكلمة روح جديدة لم تكن معروفة قبل روسو . روح العطف على المرأة الساقطة . وهى روح ما كان لغير ابن الشعب الشريد روسو أن يلمسها أو أن يحس بها وسط جمعية ذلك العصر المترفة الدعية . وما كان لغيره من الهيابين للفضائل المقررة أن يتقدم بها بهذه القوة . فلما نشرها امتدت وتشعبت بمقدار امتداد الرومانتزم وتشعبه .

ورجع روسو من البندقية إلى باريس وجعل يعرض شكواه على ذوى الأمر فلم يحفل بشأنه أحد ولا أصغى لشكواه إنسان . فثارت نفسه واشمأز من الظلم المبنى على المبادئ الحكومية لذلك الوقت . وصمم تصميما أخيرا على ألا يشتغل فى السفارات ما عاش . ورجع إلى البيت الذى أقام فيه من قبل بشارع (سان كنتان) وشرع فى إتمام روايته « الشيطانات الرقيقات » .

حدث فى ذلك الحين أمر كان له أكبر الأثر فى حياة روسو ، فقد عرف فتاة كانت معه فى النزل تدعى « تريزلفاسير » شاركته بعد ذلك حياته وظلت معه حتى يوم وفاته .

جاءت تريزلفاسير إلى النزل فاستلفتت نظر الحاضرين بما ظهر على شكلها من بساطة أهل الريف وبلههم . لكن روسو أعجب منها بتواضعها ورقتها . فلما جعل الحاضرون يمزحون معها ويغازلونها أخذ هو على عاتقه حمايتها والدفاع عنها . وسرعان ما تعلق بها وخالطها وجعل منها الشطر الذى خلق له من يوم خلق الحياة .

وتريزلفاسير ابنة تمتهن تنظيف الملابس وغسلها وأمها تاجرة صغيرة فى أورليان وكان أبوها عاملا فى دار المسكوكات ثم تدهورت حاله وترك وظيفته .

لم تثن هذه المعلومات من عزم جان جاك على ضمها إليه . بل لقد وجد فيها الشخص المكمل له والذى لا غنى له عنه . وهذا برغم عقلها الذى بقى على فطرته لا يعلق به تهذيب ولا تقيده تربية : « ولست أخجل حين أعترف أنها لم تحسن أبدا القراءة وإن كانت تكتب كتابة مقبولة . ولما أقمت فى شارع (بتى شان) كان مقابل نوافذى فى قصر (بونتشارترن) ساعة كبيرة جاهدت أكثر من شهر لأعلمها فيها معرفة الوقت وهى الآن لا تكاد تعرفه . وما استطاعت يوم

أن تفهم نظام الاثنى عشر شهرا السنوية . وهى لا تعرف رقما واحدا برغم المجهودات التى أنفقت لإفهامها الأرقام فلا تعرف عد النقود ولا ثمن شيء ما . والكلمة التى تنطق بها هى أغلب الأمر عكس ما تريد أن تقوله . على أنها برغم مبلغها هذا من الغباوة – بل من البلادة إذا أراد القارئ – فلها نصائح ثمينة فى أحرج الأوقات . وكثيراً ما رأت ما لم أره أنا أيام كانت تحيط بى الخطوب فى سويسرا وإنجلترا وفرنسا . وكثيراً ما انتشلتنى يومئذ من أخطار كنت أقدم عليها إقدام الأعمى . ولقد أكسبتها إحساساتها وحسن نظرها وسلوكها الاحترام العام أمام أرقى السيدات وأمام الكبراء والأمراء كما سمعت أنا من أجلها ثناء ظاهرا إخلاصه .

هذه هى المرأة التى شاركت روسو حياته وهذا هو حكم روسو عليها .

ولقد استثارت هذه الحادثة فى نفس جميع الذين كتبوا عنه الأسف على هذه الرابطة غير اللائقة به . والتى كانت تعيسة الأثر فى مستقبله . ولم يخرج على هذا الرأى إلا جول لمتر الذى يرى المسألة طبيعية بالنسبة لشخص روسو ولمركزه . ولا يفوت القارئ أن جول لمتر أشد النقاد كراهية لروسو وحقدا عليه حتى ليخيل لك حين تقرأ الكتاب الذى حوى محاضراته عنه أنه معاصر منافس له مع أن روسو ابن القرن الثامن عشر ولمتر لم يمت إلا عام ١٩١٤ . لذلك فإن تقديره بالنسبة لهذه المسألة كتقديره فى غيرها موضع للطعن والتزييف .

والذى لا شك فيه مطلقاً أن هذه العلاقة بين روسو وتريز كانت من أتعس ما منى به روسو فى حياته وبالأخص فى أخرياتها . فلقد بقيت أمراضه النفسية كميله للوحدة وسوء ظنه بالناس وعدم ثقته بأحد منهم تقوى حتى وصلت به أخيراً إلى الجنون . فلو أن رفيقة حياته كانت غير هاته البلهاء لما وقع فى كل هذا التعس الشنيع . كذلك فقد كانت رابطته بها سببا لأكبر الجرائم التى ارتكبها فى حياته – إن كان قد ارتكبها حقيقة – جريمة التنازل عن أولاده لملجأ اللقطاء .

أما عن أثرها فى كتاباته فلا ينفى أحد ما لمعاشرينا وأصحابنا علينا من الأثر فى الإحساس والتفكير وبالتالى فى طريق نقلهما بالكلام والكتابة .

دخلت تريز إلى نزل سان كنتان واستحقت لبساطتها وشدة حيائها حماية جان جاك الشديد الحياء الكثير الخجل . وتعارفا وتحابا . ووعد جان جاك أنه لن يتركها ولن يتزوجها . ولما أخبرته فى خجل بأن شابا استغواها عن نفسها مبتدأ

الشباب لم يكن منه إلا أن صاح إنها كذلك أحب إليه . وفى قليل من الزمن توثقت المعرفة بينهما وأصبحت محبوبته ورفيقته .

وبعد أن فرغ من أوبرا (الميزجالانت) عرضها على مدام (دلابيلنيير) لتعرضها على أستاذهما « رامو » كبير كتاب الموسيقى فى ذلك العصر . فحكم بأن بعضاً منها يستحق الإعجاب فى حين يدل الآخر على جهل مؤلفه جهلاً مطبقاً فى الفن . فلما سمعت ربة البيت حكم أستاذها اعتبرته آية لا سبيل لنسخها أو تبديلها . لكن ريشليو ، وكان يكثر التردد على مدام « دلابيلنيير » ، أعجب بأوبرا روسو حين سمعها ووعد أن تمثل فى البلاط فى فرساى . وقد مثلت بالفعل وطلب الملك أن يقدم روسو إليه . فاعتذر بما هو عليه من سوء فهم نظام الاجتماعات الراقية وكان يومئذ قد لزم عيش التقشف والزهد وانقطع لتريزلفاسير .

ولشدة ما أعجب ريشليو بأوبرا روسو فقد عهد إليه ليصلح شأن أوبرا كان فولتير قد وضع شعرها ووقع موسيقاها « رامو » نفسه . فقام بذلك برغم المصاعب التى كانت محيطة به من مرض وفقر واحتفظ جهده بكل ما يمكن الاحتفاظ به من عمل المؤلفين ، ومع ما أنفق فى عمله من عناء فقد غمطه « رامو » واجتهد فلم يترك لاسم هذا المنافس الجديد أن يظهر فى « أعياد رامير » .

ولقد أثر هذا العمل فى نفس روسو حتى أمرضه وألزمه الفراش فبقى فى بيته ستة أسابيع لا يفارقه . ولم يتمكن من مقابلة « ريشليو » بعد ذلك فضاعت عليه أتعابه وضاع عليه وقته ولم يستفد من عمله فلساً فى وقت كانت يده قد خلت من الأصفر والأبيض . ولولا ما خصه من ميراث أبيه الذى توفى حوالى ذلك الحين لوقع فى أشد الضنك والبؤس .

« ومضى الوقت ومضى النقد معه . وكنا اثنين بل أربعة بل سبعة أو ثمانية . ذلك لأنه وإن كان إخلاص تريز لا مثيل له فإن أمها لم تشاركها إياه بل كانت كلما رأت أمر ابنتها صلح بعض الشىء جلبت كل عائلتها يقاسمون تريز صلاحه . فيجىء إخوتها وبناتها وأبناؤها وحفدتها خلا كبرى بناتها التى كانت متزوجة . وبذلك تختلس الأم منها كل ما أعمله أنا لها ولمصلحة هؤلاء الجياع . . وعجيب أن تكون صغرى بنات مدام لفاسير والوحيدة التى لم يمهرها أبواها ، هى الوحيدة التى تقوم على أمها وأبيها وتطعمهما . ثم أن يسرقها إخوتها وأخواتها ، بل بنو أخواتها

بعد أن ينالوها بالضرب والأذى ولا تستطيع التخلص من ضربهم ولا دفع سرقتهم » .

ولما يئس من كل معونة من جانب ريشليو ومدام دلابيلنير وفيما هو فى همه وشجنه لخلو ذات يده صادفته عناية مدام دوبن والمسيو فرانكى فاتخذاه سكرتيراً لهما ورتبا له تسعمائة فرنك فى السنة وأنقذاه بذلك من مخالب الفاقة . وكان فرانكى يدرس الكيمياء فى ذلك الوقت وأعد لها فى بيته معملا . فاستفاد روسو درسها معه وصارت عدة جديدة فى جعبة معلوماته المملوءة بأغرب الأشياء وأكثرها اختلاطاً بالأدب والتاريخ والموسيقى والرياضيات والطبيعيات .

وانتقلوا وانتقل معهم من باريس إلى قصر بديع فى « شننسو » . قصر ملكى بنى على نهر الشير أقامه هنرى الثالث لتسكنه محبوبته « ديان دوبواتييه » الجميلة . وأمضوا الخريف هناك بين قصف ولهو وطرب . فكان روسو يكتب الروايات يقوم بتمثيلها المتنزهون أنفسهم . وقضوا زمناً حلواً زمن هناء وسعة . فلما رجع روسو إلى باريس وجد تريز لفاسير حبلى .

هنا تبدأ سلسلة الجرائم التى ارتكبها بإلقاء خمسة أبناء تباعاً فى ملجأ اللقطاء . وقد اعتذر روسو عن جريمته هذه بسفسطات طويلة سنذكرها للقارئ من غير تحيز . ولكنا نشير قبل ذلك إلى الخلاف القائم بين المؤرخين بشأن أبناء روسو .

تقدم بنا القول أن جان جاك كان مريضاً باحتباس فى المثانة . فلما رأى أنصاره والمعجبون به فظاعة هذه الجريمة لم يتصوروا صدورها من رجل إن كان قد تدنس فى صغره باختلاسات وأكاذيب فإن حياته كانت كلها حياة فضيلة مطلقة . فقال بعضهم إن ما اعترف به روسو إنما هو من أكاذيبه وإنه لم يخلف فى الحقيقة ابناً لأن مرضه أعقمه . وإنما ألجأه لاقتراف الكذب ما كان هو عليه من شدة الميل للنساء . فكان يخشى إن هن عرفن عقمه صدفن عنه ولم تقبل منهن واحدة عليه .

وقال آخرون إن روسو لم يقل فى اعترافاته إنه رأى أبناءه وإنما قال إن مدلم لفاسير أم تريز هى التى كانت تخبره بخبر الحمل وهى التى كانت تأخذ على عاتقها إيداع الطفل عند ميلاده ملجأ اللقطاء . ومعروف أن مدام لفاسير كان لها مصلحة فى توثيق صلة روسو بابنتها لكى تستمر فى استغلاله . فكانت تكذب عليه بادعاء الحمل على ابنتها ، والدليل على ذلك أن تريز كانت تقضى

الكثير من وقتها فى صحبة السيدات من صاحبات جان جاك روسو أمثال مدام دوين ومدام دلكمسبور ولم تلاحظ إحدى هاتيك السيدات الحمل مرة بل هن جميعاً يقررن أنهن إنما علمن بأبناء جان جاك روسو منه وحده ولم يعلمن بهم من أى طريق آخر .

ورأى ثالث أن تريز حملت حقيقة ولكن من غير جان جاك . وإذن فجريمته أقل فظاعة لأنه لم يكن يحس فى أعماق قلبه بهذا الإحساس الأبوى المملوء حناناً على الابن الذى ولد ولم يره أبوه .

هذه هى الآراء التى عرضت فى الموضوع . وعندنا وقد عرفنا جان جاك وأخلاقه وضعف إرادته وقلة اعتداده بالفضائل لكثرة ما مر به من المحن . إنه سواء كانت تريز حملت منه أو من غيره أو لم تحمل فإنه كان يعلم حقاً أو باطلاً أنها حامل ويرضى بعد علمه بالأمر أن يوضع الابن فى ملجأ اللقطاء .

وأما تبريره لعمله هذا فيختلف بمضى الزمن وتعاقب الأبناء .

وإنا نعتقد أن الجريمة مهما تكن كبيرة فى ذاتها فإن ما عرفناه حتى الآن عن حياة روسو المتشردة التى جعلته أقرب لأن يكون من اللقطاء من أن يكون من عائلة خاصة هى التى هونت الأمر على نفسه وهى التى تجعله أقل مسئولية عن عمله . وهذا هو السبب فى أن المعاذير التى قدمها عند ارتكابه هذا الأمر للمرة الأولى لم يكن فيها أى شىء من معنى الأسف أو الألم . وإنا سنوضح كل عذر قدمه فى الوقت الذى قدمه فيه .

رجع من شنبسو ووجد تريز حاملاً . وكان فى ذلك الوقت يأكل فى مطعم عند الأوبرا يجتمع إليه أخلاط من الشبان زمراً .

« وقد عرفت هناك نوادر مضحكة . . عن أزواج خانهم نساؤهم ونساء غرر بهن ، وميلادات خفية . وكان من يحكى عنه أنه أكثر من غيره يزيد فى تعمير ملاجئ اللقطاء موضع إعجاب مستمر . فاقتنعت بذلك وكونت فكرتى على مثال ما رأيته شائعاً عند قوم على جانب عظيم من الرقة والطيبة وقلت فى نفسى : مادامت تلك عادة البلاد فى طاقة الإنسان اتباعها مادام عائشاً فيها : وكذلك اخترت هذه الطريقة وصممت على إنفاذها بلا اكتراث ومن غير أن يعروني أى هم » . وأعطى الطفل بعد ميلاده إلى مدام لفاسير فأودعته فى ملجأ اللقطاء .

وبعد سنة حملت تريز مرة أخرى وأرسل ابنها إلى ملجأ اللقطاء ولم يعر روسو المسألة اهتماماً أكثر مما أعار سابقتها ولا هو آسف أو تألم ولا عد فى عمله ما يوجب الرجوع عنه .

وفى سنة « ١٧٤٨ » عرف روسو مدام « دبناى » . أحدث التعارف بينهما المسيو « فرانكى » وزوجته وكان بينهما وبين هاته السيدة صلة متينة . وكانت مدام « دبناى » موسيقية قادرة . لذلك ولحسن علاقة روسو بمدام فرانكى بدأ شيء من الود بينه وبين صاحبته الجديدة وسهل له ذلك طريق معرفة الكومتس « هودتو » وأن تخاطبه طويلاً ليلة زفافها .

ألا يرى القارئ غريباً أن ينتقل روسو من عند رفيقته تريزلفاسير وهى على ما عرف من بله وجهل ومن بين أخواتها وأمها وكلهم وضيع حقير فيذهب إلى بيت السيدات « دبناى » و « هودتو » و « بزنفال » و « دوبن » ومثيلاتهن من العظيمات والكبيرات . ثم ألا يرى غريباً كذلك أن يتصل به بعضهن حتى يتركن فى حياته أثراً غير ضئيل وهن يعلمن أنه ذلك المتشرد الذى قطع كل شبيبته متنقلاً كما يعلمن أنه قضى شطراً منها عشيقاً لمدام دفارانس ؟

فهل سر ذلك كله أن الشاب الذى يصل باريس بطلعة وسيمة ومواهب واستعداد واثق دائماً من أن يجد القبول الحسن ؟ . . قد يكون ذلك . ولكن الذى لا شك فيه أن هذه الثقة إنما خلقها حال الجمعية الفرنسية فى ذلك العصر . وإنا لنرى واجباً أن نشرحها بعض الشيء حتى يكون لنا بها بعض الدراية والعلم فنتتبع روسو فى حركاته الفكرية والكتابية التى هو مقدم عليها .

كانت فرنسا فى القرن السابع عشر مثال الملكية المستبدة المطلقة السلطة . فكان الشعب صفراً لا وجود له ، وكان لويس الرابع عشر كل شيء إليه يرجع الأمر والنهى وعنه تصدر كل حركة من حركات الحياة فى البلاد . ولقد كان من العظمة بحيث أصبحت عبادته الصورة البارزة للإحساس الأمى . وكان الناس يقدسونه ويعتبرون فيه الحافظ على فرنسا ثروتها وعظمتها ومجدها .

ولما كانت الطبقات العالية من الأشراف هى التى تشتغل عادة إلى جانب الملك بامر المصلحة العامة وكان لويس قد أغناها عن هذا الاشتغال باستئثاره بالسلطة فقد تيسر لأهلها فراغ من وقتهم لم يجدوا ما يملؤونه به إلا التقرب

والزلفى لملكهم العظيم . فكان الواحد منهم ينتظر على باب غرفة الملك بلا ضجر ولا ملال من الصباح إلى المساء ، ويحس بأعظم السرور إن هو صادفته منه نظرة ود أو ابتسامة عطف . والملك فى عظمته لا يجود بشيء من هذا إلا على من يخصهم بالقربى . لذلك فلم يكن ليصد الشريف عن الوصول إلى هذا المقام اعتبار من الاعتبارات . فهو يتقرب لكل شخص يرى فى تقربه ما يقربه إلى الملك . يتقرب لخادم الملك كما يتقرب لوزيره ويتقرب لمعشوقاته ولوصائف معشوقاته بل ولخدمهن إن أحوجه الأمر . وبيّن ما يرسل ذلك من الصغار إلى النفس وما يعودها عليه من النفاق والضعة .

وكان لويس متديناً فكان كل شعبه متديناً . كان الكتاب والعلماء والفلاسفة متدينين . وكان كل منهم يخصص مواهبه ليعلى من شأن الكثلكة وليزيد فى عظمة دين الملك العظيم . فصرف بوسويه وفنلون وأضرابهما كل قوتهم وبلاغتهم لإظهار عظمة الكثلكة وقوتها ، وكان الأدب الدينى قوام أمهات كتب النشر كما كانت الفصاحة الدينية هى فصاحة كل ذلك العصر . ولم يتعرض أحد مطلقاً للنظر فى قواعد الإيمان ولا ارتفع صوت لمهاجمة سلطان الكنيسة الزمنى . بل كانت كتابات الفلاسفة إنما تسعى لتزيد فى قوة كتابات الأدباء . وديكارت الذى بدأ مذهبه بنقض كل مذهب وبنيان كل شيء على أساس التفكير من جديد إنما كان يرمى ليصل إلى إثبات الإله ولا يتعرض بشيء للكنيسة .

وكان للصالونات التى أقامتها يومئذ مدام دمنتنون ومن حذا حذوها من السيدات أثر هائل على الأدب . فقد كان هم الشعراء إرضاء الملك . ورضا الملك يستلزم رضا صاحباته ومن حولهن . على أن سلطة الصالونات لم تكن مستبدة ولم يتأثر بها أجمل ما فى أدب راسين وكرنى وغيرهما . ولم يكن أدب كبار الكتّاب جميعاً أدباً دعيًّا ، بل كان أدباً إنشائيًّا (كلاسيك). والذوق الإنشائى هو ما جمع بين التعقل الوضعى والإحساس بالجمال .

ومن مميزات هذا الذوق الإنشائى أخذه بالعموميات وعدم ميله للدخول فى الدقائق أو اجتلاء الأحوال الغامضة والمسائل الاستثنائية والاكتفاء بالنتائج التى ينتجها المنطق البحت . ومن هنا جاء أن أشخاص روايات القرن السابع عشر على

عظمتهم العقلية لا يمثلون أحياء متحركة وإنما هم يمثلون أفكارًا بحتة لها ميزة الذهاب والجيئة معهم على المسرح .

على أن عظمة القرن السابع عشر كانت تتآكل بكثرة ما كانت تنفق من الجهود ، وملكه العظيم كان يرهق الأمة وكأنه كان يظنها ستنتهي بنهايته فما أزفت ساعة لويس حتى كانت فرنسا منهوكة بالحروب والدين والترف وحتى كانت الكنيسة قد بدأ يداخلها الضعف . والغريب أن ما كان سبب عظمتها بالأمس هو الذى أعده لها خصومها ليكون وسيلة القضاء عليها . فقد استفادت اللادينية من مناقشات بوسويه وفنلون واتخذتها سلماً للطعن فى قضايا الدين ، وسرعان ما ارتاحت النفوس إلى الفكاك مما كانت فيه من أسر وانضمت إلى فولتير وطائفته لتتنفس بعيداً عن ذلك النفاق الدائم الذى اضطرها استبداد لويس للالتجاء إليه خوف غضبه ورجاء رضاه .

وبتدهور السلطة المستبدة واندحار سلطان الكنيسة المطلق ابتدأ خذلان طائفة الأشراف التى كانت تعيش فى كنفهما . وبذلك ابتدأ القضاء المطلق على جميع قوى الحكم القديم .

وجاء القرن الثامن عشر معادياً للدين قاتلا لكل العقائد نافياً لكل العادات السابقة ثائراً ضد سلطة الفرد مطالباً بحال أحسن .

غير أن البناء الاجتماعى لما يخر صرحه . والنظام الذى كانت تسير عليه فرنسا القرن السابع عشر ورثته فرنسا التى خلفتها وتوسعت فيه . وبدل أن تقتصر الصالونات على جماعة سيدات البلاط فقد امتدت إلى مدام ديرنفال ومدام دوبن ومدام دبناى وأضرابهن من اللواتى أحلتهن السعة مكاناً أطلق لهن الحرية فى هذا النوع من الحياة . ورجع كتاب هذا القرن الجديد إلى هاته الصالونات وتركوا البلاط وما معه بعد أن خلفه لويس العظيم خلواً من العظمة .

إلى هذا الوسط غير المتدين الطاعن على العادات والعقائد ، المدعى لنفسه من غير أن يكون من البلاط أخلاق أهل البلاط ، المتطلع إلى جهة العلم بدل أن يخضع إلى سلطان الكنيسة ذهب جان جاك روسو البروتستانتى الأصل ،الكاثوليكى المنقلب ، المتوقد الخيال ، الميال للوحدة ، العاشق للطبيعة البكر ، العاجز عن الظهور فى الجمعيات ، المصاب بالآفات والعلل . وصل فوجد من حسن الاستقبال

م أذهب عن نفسه بعض مما كان بها من اليأس وفتح أمامه متنفساً من الأمل فى الحياة .

ولكنه على تقدمه إلى الأربعين من سنى حياته لم يكن قد اطمأن إلى نوع خاص من أنواع العيش . وكأن نفسه القلقة لم تكن لترضى بالنجاح الجزئى الذى ناله فى الموسيقى وفى التعليم فكانت دائبة تطلب الكمال ولكنها لم تكن قد وفقت إليه بعد .

تركنا روسو عند مدام دبناى ومدام هودتو . وهناك زادت صلته بصاحبه القديم ديدرو وقويت رابطتهما . كذلك عرف (كنديلاك) وصار يصحبهما كل أسبوع لتناول طعام الغداء فى مطعم (البانييه فليرى) مجتمع الشعراء والكتّاب . ولقد بلغت الصداقة فيما بينه وبين ديدرو حتى اتفقا على إصدار صحيفة باسم Le Persifleur أى الساخر . لكنهما لم يظهرا منها إلا العدد الأول . وسبب ذلك أن ديدرو ودالمبير اتفقا على القيام بعمل (الانسيكلوبيديا) فشغل ديدرو بها عن صحيفته . وشغل روسو كذلك حيث كلفه بكتابة القسم الخاص بالموسيقى .

على أن هذا العمل مع الأسف لم يستمر . فإن ديدرو نشر (كلمة عن العمى لفائدة من يبصرون) ضمنها ما جرح مدام (ديرى دسان مور) والمسيو (ريومير) فأخذ وحبس فى سجن فانسن .

وكانت كلمة روسو عن الموسيقى آخر ما كتبه ولم ينل أى شهرة . على أن إكثاره من الكتابة مدة إقامته بباريس أعاد إليه ما علق بذهنه من قراءاته الطويلة السابقة وأعده لينال المكان الذى احتله فى عالم الأدب من بعد ذلك .

٤

لما اعتقل ديدرو فى حصن فنسن عكف روسو على منازل صويحباته يشتغل معهن بالموسيقى ويستفيد منهن معرفة أصدقاء جديدين . ثم انتقل من باريس إلى (فنثناى سوربوا) مع البارون دلابيلنيير وفيها عرف الألمانيين (كلبفل) و (جرم) وظلت جماعتهم زمناً متمنعة فى القصر الجميل الذى نزلوا به .

فلما رجع إلى باريس علم أن صديقه ديدرو قد سمح له بالانتقال من الحصن إلى حديقته . وبأن يستقبل أصدقاءه . فجعل يذهب إليه وحيداً أحياناً . ومع زوجة ديدرو أحياناً أخرى .

ولما كان صيف تلك السنة (١٧٤٩) قائظاً ولم يكن روسو فى حال من السعة تسمح له بالذهاب فى عربة فقد كان يأخذ معه كتاباً يتسلى بقراءته فى أثناء الطريق . فإذا بدا عليه التعب جلس فى ظل شجرة حتى تعاوده قواه فيعاود المسير .

وفيما هو فى بعض هذه الرحلات وقع نظره فى مجلة (المركير دفرانس) على مسألة طرحتها أكاديمية ديجون لتكون موضع السبق لمن يطمع من الكتاب فى جائزتها السنوية . هذه المسألة هى ما إذا كان من أثر العلوم والفنون أن أفسدت الأخلاق أو أصلحتها .

« وساعة قرأت هذه المسألة رأيت عالماً آخر وأصبحت رجلاً آخر . . فلما وصلت إلى فنسن كنت فى حالة من التهيج تكاد تصل إلى الدوار . ولاحظ ديدرو ذلك فأخذته السنة وقرأت عليه ما مر بخاطرى وما كتبته بالقلم الرصاص تحت شجرة من أشجار البلوط . فحضنى على استكمال أفكارى والدخول فى المسابقة .

« ولقد قمت بالعمل فى كتابة هذا « الخطاب » على طريقة غريبة اتبعتها بعد ذلك فى معظم كتاباتى . فلقد خصصت له ساعات أرق وكنت أفكر فيه فى سريرى وعيونى مغمضة . فإذا ما نضجت الفكرة فى رأسى ووصلت إلى حد الرضا عنها أودعتها ذاكرتى منتظراً الوقت الذى أضعها فيه على الورق . لكن ما كان يضيع من الزمن فى قيامى وفى ارتداء ملابسى كان كافياً لينسينى كل شىء .

فإذا جلست إلى أوراقى لم يبق فى رأسى قليل مما كان من قبل فيها . فاتخذت مدام لفاسير سكرتيراً لى وجعلت أمليها حين وصولها لتوقد نارى فى الصباح ما أتممته فى أثناء الليل . ولقد أنجدتنى هذه الطريقة التى اتبعت زمناً طويلاً من خطر النسيان » .

أما الأفكار التى أخبر بها صديقه ديدرو فحضه على استكمالها فهى الأفكار التى نادى بها من بعد ذلك طول أيام حياته وأساسها الطعن على الجمعية المدنية والنداء للرجوع إلى الحالة الطبيعية واعتبار العلوم والفنون مصائب وأهوالاً انصبت على رأس الإنسانية .

ولسنا نعجب مطلقاً أن نرى روسو بعد الذى عرفناه عنه يختار هذا الطريق طريق الطعن على العلوم والفنون . فإن العلوم والفنون أثر من آثار الاجتماع بل هى زينته وتاجه . وروسو لم يكن ليصادف أى نجح فى الاجتماع . والفنون ومنها الموسيقى مصدر عظمة وثروة لكثير من الناس . وقد لاحظنا أن روسو صادفه النحس المستمر فيها . والترف الذى كان من مظاهر الحياة يومئذ كان منظوراً إليه بعين غير طيبة من كثيرين اعتقدوه مصدراً لشقاء بلادهم ، ولكنهم ضعفوا عن إظهار آرائهم أمام رأى عام ميال بكله للترف . ولم يكن روسو وهو الأجنبى عن فرنسا فى ذلك الموقف ولا كان يهمه مع ما اشتهر من غرابته ومخالفته للناس فى كل أموره ما يطعن به الناس عليه . لذلك كان هو الرجل المعين للقيام بالصيحة فى وجه الترف وما أنتجه من العلوم والفنون .

هذا هو اعتقادنا وهو اعتقاد كثير من الكتاب . مع ذلك فقد روى ديدرو بعد أن تمت القطيعة بينه وبين جان جاك أنه هو الذى أوحى بالفكرة لروسو حينما جاءه فى فانسن واستشاره عن الطريق الذى يختار . وشارك ديدرو فى هذا القول جماعة من خصوم جان جاك .

ولقد عارض روسو الرجل الطبيعى المسترسل مع فطرته السعيد فى جهله القانع من حياته بما حوله بالمتمدين المترف المدعى لنفسه التفوق فى العلوم والفنون ، وقرر « أن نفوسنا تفسد بمقدار تقدم علومنا وفنوننا إلى جهة الكمال » والتجأ لإثبات ذلك إلى التاريخ متخذاً المثل من المصريين واليونان والرومان وغيرهم وما كان هؤلاء عليه من الشجاعة والكرم والنجدة والرقى فى كل ما يتعلق بأخلاقهم .

ثم استظهر ما عليه أهل زمانه المنغمسين فى الشهوات المتربعين فى دست الملاذ الملوثين فى حمأة اللهو وأدران التمدين « وكذلك كان الترف والانحلال والرق فى كل زمان الجزاء الأوفى للمجهودات المتغطرسة التى صرفناها للخروج من الجهالة السعيدة التى اختارها لنا العقل الأزلى » .

والذى لا ريب فيه أن ابن الطبيعة الذى يدعو إليه روسو ويضربه مثلاً أعلى للإنسان إنما هو روسو الفطرى الشهوانى الأنانى الضعيف العاجز عن أن يتبع قانوناً سوى ما يوحى له به قلبه من الإلهام الوقتى . هو ذلك المتشرد القديم القليل المعرفة بالحياة المدنية البالغ من الخجل منتهى درجاته . والجمعية على النظام الطبيعى إنما هى تلك الجمعية التى رآها فى قرى سويسرا والتى هى منتهى ما يتصوره خيال رجل من العامة عدو للترف شديد الإعجاب بحياته البسيطة التى يستهين بها الرأى العام المدنى ويحكم عليها بالانحطاط .

ولقد عزا روسو العلوم فى أصولها إلى نقائص الإنسان . « فأصل الفلك الطيرة ، وأصل الفصاحة الطمع والكراهية والنفاق والكذب ، وأصل الهندسة البخل ، وأصل الطبيعة الطلعة الكاذبة ، وأصل كل العلوم والأخلاق التى ترتبت عليها إنما هو الكبرياء الإنسانية » .

وكذلك كان من أثر العلوم والفنون إضاعة الوقت وزيادة الترف زيادة نشأ عنها ضياع الفضائل المجيدة التى كانت شائعة بين الأمم القديمة ، كذلك كان من أثرها ضعف النفوس وخمود روح الحرية فيها .

« انظروا إلى مصر مدرسة العالم ذات الجو الخصب ونسيم الصافية ، انظروا إلى هذه المملكة المجيدة التى خرج منها سيزوستريس ليحكم العالم . فإنها ما لبثت أن أصبحت أم العلوم والفنون حتى أغار عليها قمبيز ثم اليونان ثم الرومان ثم العرب والترك أخيراً » .

« وانظروا إلى اليونان التى كانت من قبل مسكن الأبطال الذين هزوا آسيا مرتين . مرة حين شنت فارس الغارة على طروادة والثانية حين غزا اليونان الآسيويين فى عقر دارهم ولم تكن الآداب قد أفسدت بعد نفوس الغزاة . لكن تقدم الفنون وتحلل الأخلاق ونير المقدونيين تعاقبت كلها فلم تكسب اليونان من ثورتها بعدما تورطت فى علمها وشهواتها وعبوديتها إلا تغير المتحكمين فى أمرها

وعجزت كل بلاغة ديموستين عن أن تجدد الحياة فى جسم هزله الترف وأنهكته الفنون » .

هذا كان شأن مصر وشأن اليونان . تدركت إلى المذلة والهوان على سلم العلم والفن بعد أن كانت فى جهالتها الطبيعية السعيدة جالسة على عرش المجد والأنفة . دب إلى جسمها القوى الصحيح مرض هو أقتل الأمراض للجمعيات . مرض التفكير . وساقها نحس الطالع أن تشعر بحاجات العقل بعد أن كان كل همها مقصورا على حاجات الجسد . ومظهر حاجات العقل العلوم والفنون والآداب . وهذه وإن تك أقل استبداداً من مظاهر القوة التى تحفظ على الجسوم أمنها وسعادتها فإنها « تنشر باقات الزهر على ما يثقل الناس من أغلال الحديد وتخمد فيهم عاطفة الحرية التى ولدوا بها وتحبب إليهم رقهم وتجعل منهم ما يسمونه الشعوب المنظمة » .

وقد أصاب روما وأصاب القسطنطينية وأصاب كل أمة اندست إليها جراثيم العلم والفنون ما أصاب مصر وما أصاب اليونان . بل لو جاء عظماء رجال هذه الأمم يوم كانت العظمة الحقة فى البقاء فى أحضان الطبيعة الجاهلة ورأوا ما لحق بأهل بلادهم لولوا عنها وجوههم ثم لولوا مدبرين هما ونكداً .

« إيه فابرسيوس . ماذا كان يجول بروحك العظيمة لو بعثك نكد الطالع مرة أخرى إلى الحياة ورأيت الصورة البديعة الحاضرة لروما التى أنجاها قديماً دراعك وخلد لها وقار اسمك من الفخار أكثر مما أقامت لها كل غزواتها من المجد ؟ إنك كنت لا شك تقول : يا آلهة السماء . ماذا أصاب هذه السقوف وتلك المنازل الريفية التى كانت مستقر التواضع والفضيلة فى المضى . أى فخامة متعوسة عقبت البساطة الرومانية . ما تلك اللغة الغريبة عنا وما هذه الأخلاق المختنثة . أى معنى لهذه النصب والتماثيل والصور والقصور . ماذا صنعتم ياهؤلاء المجانين صبحتم وأنتم سادة الأمم عبيد الرجال الطائشين الذين أخضعتم . أهم الثرثارون الذين يحكمونكم . وهل ليثرى البناءون والنقاشون والمحاتون والمهرجون رويتم بدمائكم اليونان وآسيا . وهل تكون آثار قرطاجنة ملهى لزمار ؟ ! ألا عجلوا أيها الرومانيون فاهدموا هذه المسارح وكسروا تلك النصب وحرّقوا هذه الصور واطردوا أولئك العبيد الذين يذلونكم وتفسد نفوسكم فنونهم المتعوسة . ذروا لغير أيديكم

أن تجد فى هذه الأمور التافهة محلا لمجد . أما روما فلن يليق بها إلا أمر واحد . ذلك أن تحكم العالم وأن تُحكِّم فيه الفضيلة . وليست العظمة الكاذبة ولا التأنق والرقة هى التى بهرت سينياس حين حسب مجلسنا مجمع ملوك لمّا رآه . كلا ولا هو سمع فيه تلك البلاغة التافهة التى يدرسها ويعجب بها سخفاء الرجال . وإنما بهر سينياس منظر لم يكن لغناكم يا قوم ولا لفنونكم أن تقدم مثله . فقد شهد مجمع مائتى رجل فاضل جديرين أن يقودوا روما وأن يحكموا العالم » .

إذن فلم ير العالم فى مختلف ممالكه وعصوره إلا خزيا وانحطاطا من وراء العلوم والفنون ولم يتنبه إلى التدهور والخذلان . فهل من دواء شاف لهذه الأمراض والعلل . هنا لا يتردد روسو فى الدعوة للرجوع إلى الحالة الطبيعية والنجاة من الترف الذى أفسد على الناس عيشهم . وهو يضرب المثل بإسبرطة « تلك المدينة المجيدة بجهالتها السعيدة فى مجدها . تلك الجمهورية التى بلغ من رفعة فضائل أهلها أن كانوا أنصاف آلهة أكثر مما كانوا أناسا » . ولا شك عنده فى أن علم الفضيلة المرفوع أمام النفوس البسيطة سهل أن تعرفه من غير حاجة لمشقات العلوم والفنون وآثارها السيئة . « أليست مبادئ الفضيلة منقوشة فى كل القلوب . وهلا يكفى لمعرفة قوانينها أن يرجع الإنسان إلى نفسه ويسمع صوت ضميره حينما تصمت فيه الشهوات . تلك هى الفلسفة الحقة . لنعرف كيف نقف عندها . وليست الفلسفة أن نرتمى فى أحضان التفكير المذل وما يجىء على أثره من تعاسة وشقاء » .

والقارئ لا شك يرى معنا ما فى فكرة روسو من غرابة . لكن ما سبق وصفه من حالة جمعية يومئذ وما كان فى أسلوب ذلك الخطاب من الحرارة والثورة غطى على ما نقصه من منطق دقيق وفكر رائق وجعل الناس يستقبلون هذه الكلمة التى وصفت أدواءهم ولو وصفاً خيالياً بالتهليل والإكبار . وفى لحظة ارتفع روسو من مركزه كموسيقِىّ مجهول إلى مكانة عظيمة من الشهرة والإعجاب به .

ولقد اعترف له معاصروه بهذا النجاح الباهر . فقال ديدرو إنه لم ير نجاحاً مثله . وقال جرم إنه أحدث ثورة فى باريس . وقال جارا : حينئذ ارتفع صوت لم يكن صاحبه شابّاً ولكنه كان مجهولاً من الناس تمام الجهل . وارتفع لا من أعماق الصحارى والغابات . ولكن من بين هاته الجمعيات والأكاديميات ومن خلال هذه الفلسفة التى ولدت أنوارها آمالاً عدة . . وباسم الحقيقة وجه هذا الصوت التهمة

أمام الإنسانية ضد الآداب والفنون والعلوم والجمعية نفسها . . ولم يكن الاشمئزاز منه عاماً كما قيل بل الذى كان عاماً هو الإعجاب به ونوع من الوجل منه .

ونال خطاب روسو جائزة أكاديمية ديجون وأصبح روسو من الرجال الذين يشار إليهم بالبنان . وانتشر خطابه وقرأه الناس فى جمعياتهم ولقى منهم ما قدمنا من الإعجاب . لكن أصواتاً أخرى ارتفعت ضده مظهرة ما فيه من الدعوة إلى الخراب والدمار وما يترتب على الأخذ به من الرجوع بالإنسانية إلى البربرية والوحشية . ومن النكات الدقيقة التى طعن بها عليه فولتير قوله : « لو أن الناس اتبعوا قول هذا الصائح لسرهم أن يمشوا على أربع » . وممن وجهوا إليه الطعن المر والنقد الشديد ستانسلاس ملك سردينيا . والمسيو بورد صديق روسو أيام مقامه بليون ، والأستاذ جوتييه وغيرهم . وكأن أساس مطاعنهم جميعاً تناقض ما فى الخطاب مع فكرة التقدم تناقضاً بيناً .

والحقيقة أن روسو لم يقصد الرجوع بالناس إلى ما يشير إليه خطابه . ولكنه رأى الإنسانية الوضيعة من جماعة العمال وأضرابهم تبعث صيحات ألم عرف مضاضتها لكثرة ما أصابه من مثلها . فخيل له أن ما يشاهد من ترف الأغنياء وصلفهم إنما هو المصدر الوحيد لكل هذه الآلام . وإن ذلك الترف والصلف إنما أقامته العلوم والفنون فاندفع مناديا ضدها طالباً زوالها رجاء زوال هذه الآلام والمصائب من غير تفكير فى وضع خطة لذلك بل ولا فى إمكانه .

ولما لم يكن يقصد هذه الرجعة إلى الوراء أحسّ بدقة المركز وحرجه حين وجهت إليه انتقادات خصومه . أتراه يصر على طلب العودة إلى الحالة الطبيعية وإعدام آثار تقدم الإنسانية ؟ ألا لئن فعل ذلك لرماه الناس طرًّا بالجنون ولحسبوا فى صيحته الأولى ادعاء كاذباً أكبر كثيراً مما تعزوه هى للعلوم والفنون من النقائض أينكص على عقبه ويرجع عن رأيه وينزل إلى حالته الأولى حالة الموسيقى المجهول ؟ وأين ذلك من خلق جان جاك المملوء كبرا وأنانية وغروراً . أيسكت أمام النقاد ؟ إن مركزه الجديد يتنافى مع السكوت . فعاد إلى نفسه ورجع يقلب موضوعه ويمعن الفكرة فيه باحثا عن طريق للخلاص من الورطة التى أرادها له خصومه . ولقد استطاع ذلك بدقة ومهارة فاقت حرارته وثورته فى خطابه الأول وتمكن من تخفيف ما كان عنده من غلواء من غير أن يبين ذلك عليه . كما استطاع الإحاطة بكل

فكرة من أفكاره وتحديدها . قال فى رده على ستانسلاس : « ثم ماذا . أفيجب علينا أن نلغى من الأشياء كل ما ساء استعماله ؟ أجيب من غير تردد : نعم وبلا شك يجب إلغاء كل ما لم يكن مفيداً وكل ما كان لا غرق فيه أكثر ضررا مما يأتى به استعماله من الفائدة ، ولكن حذار أن نستنتج مما تقدم ما يوجب علينا حالاً أن نحرق كل المكاتب وأن نخرب كل المدارس الجامعة والأكاديميات فإنا إن فعلنا ذلك رددنا أوربا إلى الهمجية من غير أن تكسب الأخلاق من وراء فعلتنا شيئاً » .

إذن فلتبق المكاتب والمدارس الجامعة أى فلتبق العلوم والفنون . وإذن فالمطاعن الأولى لم يبق لها مكان . هذا ما يوحى به المنطق ، ولكن روسو لا يستطيع التقهقر إلى هذا الحد ، بل هو يعارض نظريته ويقصد إقامتها وإحياءها . وما فى أسلوبه من الجرأة والقوة يساعده على التغلب على خصومه .

وفيما هو فى تفكيراته جاءته أفكار جديدة رسمت أمامه الطريق إلى العظمة الكتابية التى تنتظره . وأعظم هذه الأفكار أثراً فى رسم الطريق فكرة وجوب المساواة لإمكان السعادة . قال فى ردوده على ستانسلاس أيضاً :

« ربما قيل إن الترف والشرف ليس أصلهما العلم ولكنهما يرجعان فى كل زمان ومكان إلى الثروة . وما قلت إن أصل الترف العلم . ولكنى قلت إنهما ولدا معاً وإن أحدهما لا يعيش إلا مع الآخر . وإليك كيف رتبت المسألة : فالأصل الأول للشر هو عدم المساواة ، وعن عدم المساواة تنشأ الثروة ، والثروة تولد الترف والفراغ ، والترف أصل وجود الفنون والفراغ أصل وجود العلوم » .

ودخل فى يقينه أن عدم المساواة هى مصدر كل شر فردد الفكرة فى ردوده كما وضعها أساساً لخطاب كتبه فيما بعد عنهما . ومن بديع ترديده لها قوله رداً على كلمة بورد : إن الصناعات التى تقدم مواد الترف هى مصدر من مصادر الحياة لكثير من العمال قال روسو :

« يطعم الترف مائة فقير فى مدننا ويكون سبباً فى هلاك مائة ألف فى القرى . وما يتداوله الأغنياء والفنانون من المال لوفاء ملاذهم مضيع لما يقيم أود عامل لا يجد رداء لأن غيره يلبس الذهب ، وأما ما يذهب ضياعاً من المواد المستعملة فى غذاء هؤلاء الناس فيكفى وحده ليجعل الترف بشعاً أمام الإنسانية . [illegible] [illegible]

التوابل فى طعامنا لا يجد كثير من المرضى مرقاً . ولكى تكون الخمور على موائدنا لا يشرب الفلاح إلا قراحاً . ولكى نصلح من شعرنا لا يجد الفقير لقمة » .

وكذلك انتصر روسو على خصومه ، واستطاع أن يضم إليه العدد الأوفى من القراء ، وتربع فى دست عظمته ونظر إلى نفسه وفكر فى أمره فخيل له أن من الواجب إدخال التغيير على حاله .

على أن روسو نفسه قد اعترف بأن خطابه لم يكن من المتانة والدقة بحيث يستحق ما ناله من التحبيذ والإعجاب . وهذا اعتراف حق . فإن الخطاب فضلاً عن تناقضه المنطقى لم يثر مسألة جديدة ولم يخرج إلى عالم الأدب فكرة نادرة . فقد كانت الدعوة للرجوع إلى الحالة الطبيعية وللنزوع عن الترف المفسد منتشرة تناولتها أقلام عدة . فجاء بها مونتسكيو فى (مكاتيبه الفارسية) واستظهرها ماريفو فى (جزيرة الرق وجزيرة العقل) وكتب عنها بوفن وغيره وكان جميع أولئك ينزعون إلى الطعن على شيوع الترف شيوعاً مضعفاً للنفوس مفسداً للأخلاق . على ذلك فلم يكن من جديد فيما كتب روسو إلا الصيغة الكتابية وإلا الشطط فى الاستنتاج

على أن الفكرة إن صحت هى بالغة فى التطرف . فإن ما يفسد الترف لا يتعدى طبقة خاصة من أغنياء أهل المدن . أما سكان القرى ومتوسطو الثروة من أهل المدن فلم يفسد عليهم الترف شيئاً لأنه لم يحلّ بين ظهرهم . وهؤلاء أفادتهم العلوم والفنون أجل الفائدة ويسرت لهم سبيل السعادة بما فتحت لهم من كنوز الأرض وخزائنها . وبما أوضحت لهم ما فى الطبيعة من جمال وإبداع فهل من أجل هذه الأقلية المترفة الفاسدة يقوم إنسان فى وجه العلم والفن وكل ما أبدع العقل الإنسانى تلك القيامة السوداء .

لكن ما قدمنا من تطلع الوسط لمثل هذه الكتابات وما امتاز به أسلوب روسو من الرنة الخاصة هو الذى استلفت الأنظار إلى خطابه واستفز النفوس لمناصرته .

وكان روسو فى أثناء نظر خطابه أمام أكاديمية ديجون مهتماً لما رآه على (تريزلفاسير) من آثار الحمل . ففكر هذه المرة فى طريقة أقرب للجد بشأن ذلك الابن المنتظر وقد أصبح مركزه الجديد بحيث يسمح له أن يكون أباً وأن يربى أبناءه . لكن الغريب أن تصميمه بعد التفكير الطويل انتهى إلى أن يرسل بالوليد الجديد

أيضاً إلى ملجأ اللقطاء . وحجته هذه المرة أن إرسال أبنائه للملاجئ العامة لتخرجهم عمالا وفلاحين خير لهم من البقاء معه لينالهم فى مستقبل حياتهم ما ناله من قبل من الشقاء والتعس ، ولتكون غايتهم التشرد والبؤس . ومهما يكن من وهن هذه الحجة أمام نظر الكثيرين فإن ما عرفناه عن حياة روسو وأخلاقه يجعلنا نميل لتصديقه فى إمكان تأثير هذا السبب عليه حتى ليحمله على ارتكاب عمل يعده غيره جناية ولا يعده هو شيئاً مذكوراً .

وفى ذلك الحين أراد المسيو فرانكى أن يجد لروسو عملا ،عرض عليه أن يشتغل كصراف فى المالية . وبعد تجارب لم تظهر معها أى كفاية له فى هذا العمل تركه منهوكاً مريضاً ولزم فراشه ، فلما أبل من مرضه راجعته فكرة تغيير حاله ورأى أن يهجر ما يسعى إليه الناس من ثروة وعظمة وأن يرجع إلى ما تقتضيه الحال الطبيعية من الفقر والبساطة . وتسلطت هذه الفكرة على نفسه واحتلت مخيلته واستولت عليه وكثر ورودها وتحكمها حتى عجز عن مقاومتها. فبدأ بتغيير زيه وترك ما كان يلبسه أهل زمانه وارتدى رداء بسيطاً فازداد بذلك غرابة وازداد القوم به إعجابا ! « وأراد الناس معرفة ذلك الرجل الغريب الذى لا يبحث عن أحد ولا يهتم لشىء إلا أن يعيش حرًّا سعيداً على ما يريد فكان ما أرادوا كافياً ليمنع عليه طريق السعادة ، وبقيت غرفتى يملؤها جماعة الذين كانوا يجيئون بحجج مختلفة فيغتصبون وقتى منى ، ولجأت السيدات إلى حيل لا آخر لها لأكون على موائدهم فى العشاء . . وهناك أحسست أنه ليس من السهل أن يكون الإنسان فقيراً مستقلا على نحو ما كنت أتصور » .

ولما ترك الوظيفة التى أراد فرانكى أن يشغله بها وفكر فى عمل يعيش منه حرًّا مستقلا متبعاً مبادئه لجأ إلى نقل الموسيقى . ولقد عانى هذه الحرفة من قبل وأعانته على الحياة سنين طوالا فجعل منها شغله من يومه هذا إلى آخر حياته .

فلما عرف الناس عنه ذلك تباروا جميعاً وتبارت السيدات خصوصاً يريدون اقتناء نوت موسيقية من قلمه مما زاد فى عمله حتى أصبحت كثرة الزيارات معطلة له عن لقيامه به وعن إتقانه . ففكر فى الابتعاد زمنا عن باريس وذهب إلى مركيز يس ليمضى فيها وقتاً جعله على قصره يحس بما يضيع عليه من الوقت فى العاصمة . لهذا فلما دعاه صديقه وقريبه المسيو (موسار) للذهاب عنده فى ضاحية باسى لم يجد من ذلك

بأساً . ولا رأى فيه أية غضاضة . وهناك قضى وقته بين نقل الموسيقى وعملها وترتيلها .

وفيما هو يتحادث مع مضيفه عن الموسيقى التى رأياها معاً فى إيطاليا خطر له أن يضع (أوبرا) على نسق الموسيقى الإيطالية ، وأمضى ليلته فى ترتيبها . وعجيب أن تطرأ هذه الفكرة على مؤلف الخطاب الطاعن على العلوم والفنون والداعى للرجوع إلى الطبيعة ، والأعجب أن تطرأ له بعد ما بدأ فى الخروج على الناس والرجوع فى ملبسه إلى وحى فطرته . ولكن روسو لم يكن قد آمن بعد بفكرته . بل كان لا يزال الموسيقى المتطلع للعظمة الروائية الغابط من ينالون إعجاب المتفرجين فى مسارح التمثيل وملاهى الموسيقى ، مما منع عليه أن يلاحظ مناقضته نفسه بنفسه . فانكب على عمله وأتمه وأخرجه للناس فى قليل من الزمان . وأسمى روايته هذه (آلة القرية) وضمنها مناظر ريفية كلها تدور حول ما يوحى به عجوز يدعى لنفسه السحر إلى بطلة الرواية التى تستغوى بطلها باستثارة الغيرة عنده . وتتخلل فصول الرواية مراقص ريفية تهزها موسيقى تسيل رقة وجمالا ، فلما تمت استعان بصديقه (دكلو) لتمثل على مسرح الأوبرا . ومثلت فلقيت أكبر الإعجاب بها والتصفيق لها .

ثم مثلت بعد ذلت أمام البلاط الملكى فى فونتنبلو . وكان روسو يومئذ هادئاً فى ردائه الجديد . وقد أسدل ذقنه وأرخى شعره ولم يرض بتغيير شىء من زيه ليناسب المكان الذى حل فيه . وجلس بهذا الشكل المستوحش بين سيدات قد لبسن ولبس من معهن من الرجال أبهى الحلل وأفخرها .

لكن ما نالته روايته من عظيم الإعجاب وكبير الثناء ألهاه عن حاله .

وإلى القارئ كلمة من اعترافاته عما خالج نفسه فى هاته اللحظة :

« سمعت حولى همس نساء تصورتهن الملائكة وتقول كل منهن لصاحبتها — إن هذا بديع جدا . ليست فيه نغمة لا تصل إلى القلب — فبلغ بى السرور أن استثرت شجو من هاتيك الرقيقات حتى استهل مدمعى . وتركت نفسى فى هذه اللحظة للتعبير أتذوق لذة عظمتى وأتذوقها بكامل معناها . وإن الذين رأوا تمثيل يومئذ هم لا ينسون ذكروه فقد ترك من الأثر ما لا مثال له » .

ولم يكن هذا النجاح الباهر مقصوراً على السيدات ، فقد بعث الدوق

(دمون) على أثره يخبر روسو أنه سيقدمه غداة الغد إلى الملك على أمل أن يجعل الملك له فى خزانته رزقاً .

« أفيظن أحد أن الليلة التى تلت ذلك اليوم البديع كانت ليلة هم وشجن . ذلك أنه لما عرضت فكرة تقديمى إلى الملك تصورت حاجتى إلى الخروج حاجة آلمتنى فى أثناء التمثيل ، وقد يمكن أن تضايقنى وأنا فى غرف الملك بين العظماء الذين ينتظرون مرور جلالته .

« ثم تصورت نفسى أمام الملك وقد قدمت لجلالته فتنازل فوقف وخاطبنى ، وهنا تجب الدقة وحضور الذهن للإجابة ، أفيتركنى ذلك الخجل التعيس الذى عندى والذى يجعلنى أختلط أمام أقل الناس ممن لا أعرف وأنا أمام ملك فرنسا فأوفق لاختيار اللفظ المناسب فى تلك اللحظة » .

لهذا رأى من الأصوب أن يرفض المقابلة . وإذا كان فى الرفض ما يضيع عليه ذلك الرزق ففيه أيضا ما يوفر عليه حريتــه وينجيه من عبء ربما ناء به وربما اضطر معه لترك كثير من مبادئه . ورفض فعلا ورجع إلى باريس مكللا بالفخار منظورا إليه بعين الإعجاب ممن لا يعرفونه وبعين الغبطة من بعض أصحابه وبعين الحسد من البعض . فلما استحس هذا الحسد غلبته طبيعته الأنانية وابتدأ يظن الظنون . ومن ثمت نشأت عنده فكرة لازمته بقية عمره ، أن أصحابه يريدون الوقيعة به ويرومون هلاكه .

ومثلت روايته من بعد ذلك فى باريس وكان نجاحها باهراً . هنالك سمح لنفسه أن يشترك مع (جرم) فى الطعن على الموسيقى الفرنسية مما أغضب الكثيرين عليه .

ولما أحس بمكانته فى عالم الأدب والموسيقى دفع روايته القديمة (نارسيس) إلى (التياترو الفرنسى) ومثلت من غير أن يظهر عليها اسمه فلم تلق أى نجاح .

وفيما هو يتذوق فى هذه اللحظات اللذة والألم والانتصار والهزيمة طرحت أكاديمية ديجون من جديد لمسابقة الكتاب المسألة الآتية : ما هى أصول عدم المساواة بين الناس ؟ وهل يرضاه القانون الطبيعى ؟

وظاهر أن أكاديمية ديجون إنما وضعت هذه المسألة لروسو صاحبها وبطلها . فقد كانت ردوده على ستانسلاس وبورد مملوءة حمية وحماسة ضد عدم المساواة .

وروسو هو بطل القانون الطبيعى . فمادام قد أعلى شأن المسألة الأولى فهو الذى ينتظر ليعلى شأن المسألة الثانية .

وأحس روسو بذلك واقتطع من وقته جوابه . ولكنه يجيب على المسألة من طريق آخر ، ويضع للخطاب الذى يكتبه عنها عنواناً آخر ، ويكتبه على ما سيرى القارئ بحرارة وأسلوب ثورى تنطفئ أمامهما حرارة وقوة الخطاب الأول . ولذلك كله لم تعطه الأكاديمية جائزتها .

٥

العلوم والفنون مفاسد للأخلاق وأثر من آثار نقائص بنى الإنسان ونتيجة لكبريائهم الفارغة . وإنما جاء شقاؤهم بسببها وحين خرجوا من جهالتهم الطبيعية . ولولاها ولولا ما جاءت به من الثروة وما أنتجته الثروة من عدم المساواة لما كان التعس الذى يتمرغ فيه ألوف بنى الإنسان . فإذا أراد الناس السعادة فليرجعوا إلى جنان الطبيعة .

هذه هى الأفكار التى عرضها روسو فى خطابه الأول . ولقد رأى القارئ غلوه فى طريقة عرضها أول الأمر وتعديله لها فى ردوده على من تعرض لنقده . ولقد جاء فى بعض هذه الردود قوله : إنى أعتقد أن الإنسان طيب بطبعه .

والطبع والفطرة والسليقة كلمات طالما عرضت فى مؤلفات روسو . ومع ذلك فلم يجد أحد لها تعريفاً واضحاً على صحائف هذه المؤلفات . وكل ما أمكن استنتاجه أن روسو كان يقصد بالطبيعة أو الفطرة ما جبل عليه الرجل أول خلقه من غرائز وإحساسات . فمعنى أن الإنسان طيب بطبعه وأن السعادة ترجع للناس إذا استمعوا إلى الطبيعة هو أن السعادة ترجع لهم إذا هم تركوا كل نتائج الفكر وما أبدعه من مدنيّة وحضارة ، ورجعوا إلى وحى الطبيعة الأول واتبعوا ما تدعو إليه من البساطة والسذاجة . وهذه الفكرة التى كانت غامضة فى خطاب العلوم والفنون ستكون مصدر الإشعاع فى خطابه عن عدم المساواة وأصولها ونتائجها .

عرضت أكاديمية ديجون فى سنة ١٧٥٣ مسألة أصول عدم المساواة بين الناس . وهل يقرها القانون الطبيعى ؟ فلم يكن أحد أسبق من روسو للنظر فيها والكتابة عنها كيف لا وقد أمعن فيها البحث والنظر عند كتابة ردوده عن الخطاب الأول .

قال : « ولأفكر فى هذا الموضوع الكبير مطمئناً ذهبت مع تريز وربة البيت وصاحبة لها إلى سان جرمان وأمضينا فيها سبعة أو ثمانية أيام أعدها من أجمل أيام حياتى . فكان الطقس رائعاً وقامت هاتان السيدتان بأمر النفقة وأمضت تريز وقتها معهما مسرورة وكنت أرجع أنا إليهن ساعات الطعام لأتمتع بالسرور

بينهن سروراً لا تشوبه شائبة ، أما بقية النهار فكنت أقضيه كاسياً وسط الغابة . وهنالك بحثت ووجدت صورة العصور الأولى فرسمت تاريخها مغضياً عما أحاطها الناس به من الأكاذيب ، وعمدت إلى رفع الستار عن طبيعة بنى آدم وتتبعت سير العصور واستظهرت الأشياء التى أفسدت هذه الطبيعة ، وأظهرت لهم بمقارنة الإنسان الذى صنعه الإنسان بالإنسان الطبيعى أن الأصل الحقيقى لشقائهم إنما هو ما يدعونه لأنفسهم من الكمال . وارتفعت نفسى وقد حفزتها هذه المشاهدات العالية حتى كانت على مقربة الألوهية . ومن هناك رأيت أمثالى يسترسلون تدفعهم عاداتهم العمياء فى طريق أغلاطهم ومصائبهم وجرائمهم فناديتهم بصوت ضعيف غير مسموع قائلا : (أيها المجانين ، يا من لا تزالون تشكون من الطبيعة . ألا فاعلموا أن مصائبكم إنما تأتيكم منكم) » ؟

وكانت تفكيراته فى غابة سان جرمان مصدر خطابه عن عدم المساواة . لذلك لا نعجب إذا رأيناه صادفاً عن استقراء التاريخ مسلماً نفسه إلى خياله معتمداً كل الاعتماد عليه . كما لا نعجب أن نراه يفتتح هذا الخطاب بقوله : « نبدأ باستبعاد كل الوقائع فإنها لا تمس موضوعنا ، ثم لننظر إلى ما يمكن ممارسته من الأبحاث فيه . ولننظر إلى ذلك لا كحقائق تاريخية ولكن كتعليلات افتراضية أكثر ملاءمة لإيضاح طبيعة المسائل منه لإظهار حقيقة أصلية » : ثم يقول : « أيها الإنسان إليك تاريخك كما أعتقد أنى قرأته لا فى بطون الكتب التى وضعها أمثالك فإنهم كاذبون ولكن على صفحات الطبيعة التى لا تكذب أبداً » .

وأطلق لخياله العنان فتغلغل به فى ظلمات الماضى حتى وصل إلى حيث اعتقد مبدأ الإنسانية جاعلا رائده فى هذا البحث الخيالى الوصول إلى تصور ذلك الإنسان الأول الذى يعتقده « طيباً بالطبع » . وكما عمد فى خطابه الأول حين أراد أن يستظهر الفرد على ما يجب أن يكون فى المستقبل إلى انتزاع صورة من نفسه . كذلك كان متأثراً هنا عند رجعته للماضى بما يتمناه لنفسه وشخصه . وليس ذلك بالغريب منه وقد قضى كل حياته مهتماً بنفسه جاهلا ما سواها متعلقاً بها إلى أقصى حدود الأنانية .

الإنسان الأول فى خيال روسو هو ما يصوره حين يقول : « أرى عند تصورى الإنسان كما لا بد قد كان حين أبدعته يد الطبيعة حيوانا أقل فى قوته

من البعض وأقل فى خفه حركته من الآخرين ، ولكنه مرتب فى مجموعه على شكل أقرب لفائدته من أشكالهم جميعاً . وأراه جالساً يتناول طعامه تحت شجرة بلوط ويشرب من أول غدير يصادفه ويجد مرقده عند جذع الشجرة التى قدمت له طعامه ، وهنالك يكون قد استكمل حوائجه . .

« وبما أنه لا يزال فى مرتبة الحيوانية فهو يقلد صناعة الحيوانات . . ويرتقى إلى فطرة البهائم . . ويجمع بين مختلف طبائعها . . ويتغذى من أكثر المواد التى تصلح لمختلف الحيوان ويجد حياته بذلك أسهل مما يجدها أى نوع منها » .

« ولما كان جسم الرجل المستوحش هو الآلة الوحيدة التى يعرف فهو يستعمله فى وسائل شتى تعجز دونها جسومنا لقلة دربتها عليها » .

هذه هى الصورة المادية التى يراها جان جاك لابن الطبيعة أول ما خلقته . فهو رجل متوسط القوة متوسط الحركة بهيم لا يدرى أين يذهب ويقضى حوائجه كما يتاح له . يحل به الجوع فيتناول أيا ما يصادفه ليزيله به . ويحس بالعطش فيجد عند أول غدير وأول بقعة ماء ما يروى أوامه . فإذا جاءه التعب مال إلى ظل أول شجرة تقابله . وإذا جنه الليل نام تحت هذه الشجرة غير متخوف شيئاً . هو حيوان ككل الحيوانات الضالة الهائمة .

وهو يقضى حوائجه الجنسية بمثل ما يقضى به حوائجه الذاتية من البساطة فلا يعرف الاختيار فى النساء ولا يعرف ما يتبع ذلك الاختيار من عواطف الحب والهيام . وهو فى ذلك إنما « ينصت للفطرة التى وهبتها إياه الطبيعة لا لذوق لم يتكون له بعد . فكل امرأة حسنة فى نظره . وهو ينتظر بهدوء ومن غير تفكير دفعات الطبيعة . فإذا جاءته أسلم نفسه لها من غير اختيار وكان سروره بذلك أكثر من شدته فيه . ومتى انقضت حاجته انطفأت رغبته » .

فإذا تم اللقاح بين الرجل والمرأة على هذه الحال الحيوانية البحتة انفصلا وبقيت المرأة حتى تضع ولدها ثم تسعى له سعى أنثى الحيوان لصغارها ، فإذا شب الصغير وصار فى طوقه أن يجد قوته تركته يعمل له . ولا خوف فى نظر روسو على هاته المخلوقات الضعيفة من عدوان غيرها عليها . « فإن الشفقة تحل فى الحالة الطبيعية محل القوانين والأخلاق والفضائل . ولها على هذه النظم من الفضل أنه لا أحد يفكر فى عدم الاستسلام لصوتها الرقيق . فهى تمنع المستوحش

القوى عن أن يأخذ من الطفل الضعيف أو العجوز المريض ما يقيم أوده مما كسبته يده ، ما دام ذلك القوى يأمل فى العثور على طعامه من طريق آخر » .

فى هذه الحالة الطبيعية الأولى وتلك الحيوانية المطلقة كان الناس جميعاً على تمام السعادة . كانوا ممتعين بنعيم الجهل وهناء القناعة لا يشغل بالهم شىء يستثير منهم هماً أو ألماً . ولا يداخل نفوسهم الطمع فينغص عليهم راحة الحياة السعيدة . كانوا يعيشون كل ساعة لساعتها وكل لحظة لنفسها غير مفكرين للمستقبل ولا ذاكرين الماضى ولا مريدين جديداً .

ولو أن السعادة كتبت للناس فى هذه الدنيا لظلوا عند هذه المرتبة الأولى حيث الهناء الأكمل ولما غادروا ما كانوا يرتعون فيه من نعمة المساواة وعدم التنافس . . ولكن أنى لهم سكينة النفس بعدما خرجوا من أحضان الطبيعة ثم لا يفكر أحد منهم فى الرجوع إليها أو فى تنسم ريحها الجميل .

« بل لو أن الطبيعة كتبت للناس أن يكونوا سعداء لحق لى أن أؤكد أن حال التفكير حال مناقضة للطبيعة وأن الرجل الذى يفكر إنما هو حيوان فسد مزاجه » .

كلمة غريبة تلفظ بها روسو . كلمة قال جول لمتر إنه ما نطق بها إلا ليدهش فلاسفة عصره وجميلات ذلك الوقت . لكنا نعتقدها على غرابتها صادرة عن إيمان بها ويقين بما تحويه من حقيقة لا يشك جان جاك فى صحتها . كلمة نطق بها تحوى كل ما يخامره من الألم لما ارتكست فيه جمعية ذلك العصر من رذائل الترف عند قوم وبؤس الفاقة عند آخرين . وإنه فى تقريره هذه الفكرة الغريبة إنما يريد أن يقول : هاهى ذى آثار العقل الإنسانى بادية أمامنا بعظمتها وجلبتها . ها هى ذى المدنية التى أبدعها بنو آدم ملأى بالتعس والنقص وها هم أولاء الناس يضجون تحت نيرها ويحز الألم رقابهم . فماذا كسبوا ؟ ثم ما هى الغاية التى يرمون إليها ؟ أليست غايتهم جميعا الفناء . وهل سعادتهم فى شىء غير العيش فى ظلال الحرية ؟ فإذا كانت المدنية التى أنتج الفكر هى أصل عدم المساواة ومصدر فناء الحرية وسبب الشقاوة والتعس فهلا يكون الفكر الذى أبدعها جميعا أصل كل بلاء . وما دامت الطبيعة لا تريد بالناس إلا الخير فحالة التفكير حالة غير طبيعية » .

وليس غريباً صدور هذه الفكرة عن روسو مع عظيم ولعه بالسكون والطمأنينة .

ولكن الغريب إغراقه فيها وغلوه . وكأنما كانت هذه غريزة فيه يندفع وراءها حتى يجد من يرده لصوابه . فهو لا يقول باستبقاء المكاتب والمتاحف إلا بعد أن يرد عليه سانتسلاس وبورد قائلين له إن خطابه عن العلوم والفنون رجعة بالإنسانية إلى البربرية والوحشية . وهنا كذلك يقول بعد أن يقرر أن من خصائص الإنسان التى يمتاز بها قدرته على الكمال قدرة مصدرها الفكر : « وإنا لنرانا مع عظيم الأسف مضطرين للتسليم بأن هذه القوة المميزة التى لا حد لها — قوة استطاعة الكمال — هى مصدر تعاسات الإنسان كلها وهى التى تخرجه بالزمان من تلك الحال الأولى التى كان يمضى فيها أياماً هادئة بريئة » .

واضح عنده إذن أن كل خروج على الطبيعة تدرك إلى الشقاء : « واضح أن أول من خاط لنفسه ملابس أو أقام لنفسه مسكنا إنما اقتنى أشياء قليلة حاجته إليها بدليل أنه تمكن من الاستغناء عنها إلى يوم عملها . فليس ثمة ما يظهر لنا السبب الذى جعله عاجزاً عن أن يحتمل فى رجولته نوعا من الحياة استطاع احتماله صغيراً » .

لكن الحيوانات نفسها تلجأ إلى أكنان تقيها البرد والريح وعاديات الطبيعة ويتزين بعضها بما يكاد يشبه لباس الإنسان الأول . فهل هى بذلك تتدرك إلى التعس أو تعمل على نقيض ما تريده الطبيعة ؟ ليس فى مقدور أحد ولا روسو نفسه أن يجيب عن ذلك إيجاباً . فإن الحيوان هو المثل الأعلى للمخلوق الحى الطبيعى وإليه « ارتقت فطرة » الإنسان الأول فى رأى روسو . كما أن القدرة على الكمال وهى التى تميز الإنسان عما سواه إنما هى ميزة وهبتها إياه الطبيعة فلا يمكن والحالة هذه أن تكون ضد الطبيعة .

ولكأن روسو يحس بذلك بعض الإحساس ويرى ما فى فكرته من غلو وإغراق . لذلك سمح لهذه القدرة الفطرية أن ترتقى إلى حال يجد الناس عندها السعادة هى حال القبائل البادية التى لم تعرف الملكية . ذلك بأن الناس عندها وإن كانوا قد أصبحوا أقل احتمالا وكانت الشفقة الطبيعية المعروسة فيهم قد عانت بعض التغيير فإن هذا العصر من عصور رقى القوى الإنسانية . وقد قام وسطا بين كسل الأيام القديمة وتراخيها والنشاط المفرط الذى امتازت به أنانيتنا . يجب أن يكون أسعد العصور وأهناها . وكلما فكر الإنسان تجلى له أن هذه الحال كانت

أقل الحالات تعرضاً للثورات وأحسنها وأسعدها لبنى الإنسان فلم تخرجهم منها إلا مصادفة منحوسة . وجماعة المتوحشين الذين وجدوا ، ولا يزالون ، يعيشون هذا النوع من أنواع الحياة ، هم خير مثال يثبت أن النوع الإنسانى إنما أعد ليبقى فيه . وإن تلك الحال هى حال شباب العالم الحقيقى . وكل تقدم حصل بعدها إنما كان تقدماً نحو كمال الفرد بمقدار ما كان اقتراباً من فساد النوع » .

إذن « فالحياة البسيطة المتشابهة المنفردة التى قدرت لنا الطبيعة » ليست هى أحسن أنواع الحياة . وإنما يجب أن نتخطاها إلى حياة القبيلة وقبل أن توجد الملكية حتى يجد الناس المساواة ونعيم الجهالة وركود العقل ونعمة القناعة بما تحت يدهم وعدم التفكير لغدهم . فإذا هم ابتدءوا يفكرون للغد ابتدأت أعراض عدم المساواة تظهر وابتدأ يظهر معها البؤس والشقاء .

ولعل روسو رأى ما يكون من غلو غير معقول فى القول بأن الإنسان المستوحش المنفرد الذى يعيش عيشة الحيوان أفضل من الإنسان الممتاز بقدرة الكمال ، المستعمل لهذه القدرة . وخشى من يفاجئه بمثل الردود التى وجهت لخطابه عن العلوم والفنون . على أن الفكرة المعدلة نفسها بالغة فى الغلو وقائمة على أساس خاطئ . فليس للمستوحش ذلك القسط من الشفقة الذى يريد روسو أن يعزوه إليه كلا ولا هو أرقى أخلاقاً من المتمدين . وإنما كانت فكرة « الطيبة الطبيعية » أو « الطيبة الوحشية » شائعة يومئذ ، وكانت فطرة روسو تدفعه ليؤمن بها . وخياله وتحمسه لعقيدته ضمنا له القوة فى استظهارها على شكل خطابى ثورى شديد .

وبعد أن أظهر أن عدم المساواة لم يكن موجوداً فى الحالة الطبيعية وفى الجمعيات الأولى غير المفكرة ، استطرد ليرى ما جاءت به المدنية من المصائب والأرزاء فظهر له أن أساس المدنية وأهوالها إنما هى فكرة الملكية .

« وأول من فكر حين أحاط قطعة أرض فى أن يقول — هذه لى — ووجد قوماً بلغ بهم العمى يصدقوه هو الواضع الحقيقى للجمعية المدنية . وكم من الجرائم والحروب والدماء ، وكم من التعس والبؤس كان يوفره على الإنسانية ذلك الذى يتقدم ساعتئذ فيقتلع الأعلام أو يردم الخندق المحيط ويصيح فى قومه : إياكم والاستماع لهذا الكذاب » .

وتلك الصيحة من روسو هى من الصيحات الأولى التى ارتفعت ضد

الملكية والتى تقدمت الآراء الاشتراكية . ولئن تقدم روسو كتّاب آخرون نادوا بالمساواة وقرروا أو كادوا مبدأ (الكوميتزم) فإن أثر روسو بخطابه عن عدم المساواة وبعقده الاجتماعى طمس على ما كتبوا وظهر للأجيال التى تلته نبراساً وفرقاناً . كانت كتابات هذا اليائس المتشرد على ما فيها من سفسطة غير قليلة تهز القرن الثامن عشر والأيام الأولى من القرن التاسع عشر هزات لم يطمع فيها فولتير ولا فكر فى شىء منها مونتسكيو حين وضع مكاتيبه الفارسية وكتابه روح الشرائع . وكيف لا تهزهم الفكرة الجديدة وقد كانوا جميعاً يشعرون فى أعماق صدورهم بشىء من القلق أمام نظام أساسه التمتع بالملكية الواسعة من أقلية تتفق عن سعة وسخاء لإرضاء ملاذها إرضاء لا يتم إلا بإذلال الأكثرية الفقيرة المحرومة من الملك والقضاء على حريتها . وقد كانت صيحات روسو الحارة الصادرة من أعماق نفسه الدالة على شديد إيمانه بما تحتويه قمينة أن تنبه هؤلاء الفقراء المستذلين إلى ما هم فيه من هم وحرمان وذل وأن تدفعهم للثورة عليه . وما كان أشدهم استعداداً يومئذ لذلك أمام ما رأوه من صلف الأغنياء وكبريائهم الفارغة واستمتاعهم بمذلة إخوانهم من بنى الإنسان وعدم اعترافهم بما لغيرهم من حق فى ثروة أقامها هذا الغير بعرق الجبين ويتمتعون هم بها من غير عمل وبلا عناء .

« بل لو رأيت جماعة من الأغنياء والأقوياء ممتعين بما بلغوا من مراقى العظمة والثروة وإن تردى المجموع فى الظلمة والتعس فذلك لتقدير الأولين متاعهم بالأشياء على نسبة حرمان سواهم منها ، ولو بقى لهم ما يمتعهم وزايل المجموع بؤسه وتعسه لانقطع عليهم سبيل السعادة » .

ولا دواء لهذه الحال إلا باستئصال أسبابها ، والسبب الأول هو هذه المدنية المترفة القاسية التى تحكم الإنسانية بنيرها الثقيل . ومهما قيل عن ذلك التقدم الموهوم فإن المتاع بالحرية الصحيحة المطلقة خير ألف مرة من هوان دائم نُكره عليه باسم النظام والتمدين . والحرية لا تكون مع عدم المساواة ومع قيام شخص بالعمل يستمتع غيره بنتائجه . فإذا لم يكن من سبيل لهذه المساواة إلا العودة لما يسمونه الوحشية فلنعد إليها فهى خير وأبقى ما دامت الحرية فيها محترمة مصونة . وهل الرجل المستوحش وكل حيوان مستوحش إلا مثال الموجود الحر الكريم .

قال روسو :

« وكما أن الحصان غير المهذب ينفش شعره ويضرب الأرض برجله ويشتد لجبه لمجرد إدناء اللجام من فمه فى حين يحتمل الحصان المدرب السوط والنخس بصبر وجلد ، كذلك لا يطأطئ الرجل المستوحش رأسه للنير الذى يحتمله المتمدين من غير ضجر بل يفضل الحرية مهما خالطها على الاستعبد وإن صحبه السكون والهدوء » .

ولكن الناس مع الأسف يصبرون على حريتهم المفقودة من غير ضجر ويرتضون الخضوع للرق وعدم المساواة فى الأرزاق والدرجات ، بل ترى كل منهم يطمع فى الحصول على قسط من الترف الذى يتمرغ فيه غيره ، وهو يرى لذلك لازماً أن يقبل تعسف من هم أرقى منه فى الدرجة كى يستطيع العيش والعمل إلى جانبهم ببعض السكينة والهدوء وأن يرى حريته يتقلص ظلها ثم لا يستطيع التمسك بها مخافة أن يزيدها تمسكه بها ضياعاً . كما أنه يندفع بدافع الأمل والطمع رجاء الحصول على شىء مما يميز جماعة الأغنياء والأشراف . متى داخله الطمع رضى أن ينزل عن كثير من أنفة قد تقف فى سبيل أغراضه كما دخل نفسه وقلبه همّ غده . ومتى أهم المرء غده ، فقد أهم أركان السعادة .

وظل الناس ، بما يدعونه لأنفسهم من التقدم ، يتورطون فى فوضى عدم المساواة ويقاسون أهوالها . فإذا فكر فريق منهم فى الخروج على النظام القائم لم تفدهم حركتهم إلا إمعانا فى الألم وتورطا . « ومن أعماق هذه الفوضى وتلك الثورات يرفع الاستبداد رأسه البشع رويدا رويداً ويلتهم كل ما تقع عليه عينه من طيب أو سحيح فى أجزاء الحكومة ثم يصل أخيراً ليطأ تحت قدميه القوانين والشعب وليقوم على أنقاض الجمهورية » . فإذا قام قائم ضد هذا الاستبداد لم يكن همه إلا تخفيف بعض ويلاته من غير تفكير فى الرجوع إلى حال المساواة الطبيعية . وبذلك تبقى الفروق ويبقى هم التفكير للغد ويبقى ما يجىء معها من المصائب والويلات .

هاته هى الأفكار التى عرضها روسو فى هذا الخطاب . ومع ما هى عليه من حرارة والقوة فإن أثرها لم يظهر بعد نشرها بل بقيت زمناً حتى إذا قامت الثورة الفرنسية خامرت كل النفوس وأصبحت بعض قرآن ذلك العصر الملطخ بالدماء فى طلب الحقوق المهضومة . وتلخيصها الذى قدمناه ينم عن غرابتها .

على أن أغرب ما فيها هو صيغتها المملوءة قوة وحرارة وإيماناً . فأما الأفكار التى فيها فكانت متداولة بين كبار كتاب ذلك العصر .

وروح الفكرة فى هذا الخطاب عند إميل فاجيه هى : الإيمان بأن الإنسان هو على أقل تقدير مدنى أكثر مما يجب . فيجب – على الأقل – تحديد المدنية فى أضيق حدودها ، والرجوع بها إن لم يكن لدائرة الأسرة فللقبيلة أو العشيرة أو المدينة الصغيرة حتى يقل حِمل الواجب وعظيم المجهود ومهول ما بين الناس من الفروق . وبذلك تقل الحاجات المختلفة من مجد وترف وحياة مدنية وتفنن فى المتاع ويرجع الإنسان إلى نصف حيوانية مفكرة ولكنها صحيحة مطمئنة هـــادئة متحابة هى حالته الطبيعية والحال التى يجد فيها السعادة » .

ومع أن هذا الخطاب أقوى وأشد من خطابه الأول فإنه لم ينل جائزة أكاديمية ديجون .

بعد نشر هذا الخطاب بزمن غير طويل سافر روسو مع صديقه جوفكور إلى جنيف واستصحب معه تريزلفاسير . فلما كانوا فى الطريق حدث ما استوجب القطيعة بينه وبين صديقه . فتركه عند ليون وعدل إلى طريق السافوا . وخطر فى باله أن يمر بمدام دفارانس ومر بها ورآها . قال :

« رأيتها . . ولكن . فى أى حال يا إله السماء وفى أى هون ؟ ماذا بقى لها من فضيلتها الأولى ؟ هل هى هاته مدام دفارانس البديعة التى بعث بى إليها المسيو بونتفير ؟ ألا كم شق علىّ حالها ساعتئذ ؟ . . ولم أر من وسيلة لها إلا هجر بلادها . فكررت لها على غير جدوى ما طالما طلبته إليها فى خطاباتى لتحضر وتعيش مطمئنة معى فأكرس أيامى وأيام تريز لإسعادها . لكن تعلقها برزقها الذى كان يصرف لها من غير أن تستفيد منه جعلها لا تسمع إلىّ » . ثم تركها وترك لها بعضا مما عنده . فلما التقيا بعد ذلك وعلم بخلو جيبها أرسل بنقد إليها على يد تريز : « وكانت هذه هى اللحظة التى يجب أن أقضى فيها دينى بأن أترك كل شىء لأتبعها وأن أبقى معها حتى ساعتها الأخيرة وأن أقاسمها حظها أياً يكون . . لكنى لم أعمل من ذلك شيئاً . وأحسست أن ما كان بيننا من رابطة قد انقطع فلا يفيدها لأن رابطة أخرى ألهتنى عنها » .

هذا هو روسو الأنانى المحب لذاته . وقد تعزى عن فعلته هذه بما يتعزى

به دائماً من أنه طيب القلب وأنه لا يستطيع أن يجيء بنكر ولا أن يرتكب سيئة . على أن لديه شفيعاً يغفر له هذه الخطيئة ويغفر له كثيراً من مثلها . إنه نابغة وللنوابغ هفوات إذا هم دققوا فى محاسبة أنفسهم على كل واحدة منها ضاع نبوغهم وضاعت فائدة العالم منهم . والقوة الكمينة فى نفس روسو والتى دفعته لارتكاب أغلاطه – هذه القوة القائمة على أساس من الغرور وحب الذات – هى عينها تلك العبقرية التى دفعته ليخرج للناس خطابه عن عدم المساواة والتى ستدفعه فى المستقبل ليقلب الأدب الفرنسى فى ذلك العهد رأساً على عقب ، وهى أيضا التى ستجعله الرسول الذى يجهز للثورة الفرنسية إنجيلها ويمهد لها السبيل العظيم الشنيع الذى تختطه .

وفيما هو فى (شمبرى) كتب إهداء خطابه عن عدم المساواة إلى جمهورية جنيف مسقط رأسه ومهد صباه . فلما وصلها استقبله أهلها أحسن استقبال واحتفوا به وأكرموه . فأحدث ذلك فى نفسه أثراً بلغ حتى جعله يفكر فى استرجاع حق انتسابه لهذه الجمهورية . لكن ذلك لم يكن بالأمر الهين وهو على دينه الجديد . فلم ير من بأس أن يرتد إلى البروتستانتية دين آبائه : « وما دام الإنجيل هو الإنجيل لجميع المسيحيين . . فإن تفسير آياته هو فى كل بلاد من حق سلطانها . . ولما لم يكن لعاقل أن يرى طريقين للمسيحية فكل ما يتعلق بالشكل والنظام يدخل فى دائرة القانون » .

وفى أوائل أكتوبر سنة ١٧٥٤ ارتحل عن جنيف راضياً كل الرضا عن مقامه فيها منتظراً عودة الربيع وزخرف الطبيعة ليعود إليها فيرتب طريق الحياة الذى يسلكه بقية عمره بين جناتها الناضرة وحول البحيرة البديعة الساحرة التى لم ينس أن يأخذ من مناظرها بنصيب مدة الأشهر القليلة التى قضاها حولها . ووصل إلى باريس مبتدأ الخريف وباشر طبع خطابه الجديد مصدراً إياه بالإهداء إلى حكومة الجمهورية وانتظر ما سيجره هذا الإهداء من عطف عليه وإعجاب به . ولكنه سقط فى يده حين علم أن ظهور الكتاب زاد فى عدد أعدائه بين أعضاء حكومة جنيف ولم يخلق له صديقاً جديداً . وقد انقلب بعد ذلك ينظر إلى هذا البلد المحبوب بعين الريبة والشك .

ولما جاء الربيع لم تمكنه الفرصة من إنفاذ فكرته فى العودة إلى جنيف .

ولم يكن سوء استقبال كتابه هو كل السبب فى عدوله بل جاء إلى جانبه سبب جديد . ذلك أن مدام دبناى أقامت له منزلا إلى جانب قصرها بالشفرت ولم يستطع هو أن يمضى فى عزمه ويرفض قبول هبة صديقته .

وهذا السبب الأخير وحده هو الذى يقدمه روسو ليعلل به بقاءه بفرنسا وامتناعه عن الذهاب إلى جنيف . ولعله الغرور هو الذى يجعله يغفل ذكر السبب الآخر .

وهنا نترك روسو يفكر فى منزله الجديد لنفكر نحن فى طريق تفكيره يومئذ . ونحسب القارئ قد وصل معنا ليرى أن روسو لا يزال شاعراً أكثر منه مفكراً . فهو يريد أن يتبع المعلول بعلته ويصل النتيجة بسببها فيجىء بمقدمات خطابية يملؤها من روحه حماسة وقوة . ويحسب قارئه قد اقتنع متى اقتنع خياله هو بالصورة التى دارت فيه ومثلت نفسه أمامها . وهو ينتزع من مخيلته صوراً يسميها تاريخ الإنسانية ويرسم أمامك الحيوان الذى يحلو له ليسميه الإنسان على ما فطرته الطبيعة . لكنه إلى جانب ذلك موفق الخيال مرتب الحواس إلى حد تكاد تُظهر صوره معه حقائق ناطقة تخاطب القلب والعقل عصوراً متتالية وتبقى آخذة بهما برغم تقلب الأزمان وتطور الأفكار .

فصيحته ضد الظلم ، ونداؤه ضد الترف . لم يكونا مبنيين على فكرة اجتماعية مختمرة فى رأسه تكون مع غيرها طريقاً خاصا فى البحث والنظر . بل كانا أثر تلك الحياة المتشردة التى أنقضت ظهره أيام شبيبته . وطعنه على الملكية وإظهاره ما تورثه من التعس لم يكن نتيجة فكرة اشتراكية متدبرة . ولكنه نتيجة ما كان فيه هو وأمثاله من الفقر والفاقة وما قاسى من الجوع أيام صباه . ولهذا كله كنت تراه كثيراً ما يناقض نفسه وتتضارب أقواله تضارباً كانت تخفيه القوة الحائلة التى امتاز بها أسلوبه الثائر المملوء خيالا وقوة .

وكانت هذه القوة فى الأسلوب تخفى كل عيب آخر . وهى التى رفعت روسو برغم كل المعارضات التى وجهت إلى خطاباته إلى مقام أعاظم أدباء عصره وجعلته موضع إعجاب الأكثرين والضالة المنشودة فى صالونات الجميلات والأديبات .

وهى هذه القوة التى حببته إلى مدام دبناى حتى جعلتها تسعى لتختصه لنفسها

فتنال بذلك حظًا يحسدها عليه غيرها .

وستزداد هذه القوة حتى تبلغ أوجها حين يخط جان جاك روايته « لانوفل هلويز » فيحيي بها الرومانتزم ويحفر بها أول حفرة فى قبر الكلاسيسيزم ثم تبدأ ليحل محلها تفكير أدق وأعمق يضمن للناس ترتيب روسو لنظرياته فى كتابيه الكبيرين « التربية » و« العقد الاجتماعى » .

٦

أقام روسو بجنيف حوالى أربعة أشهر كان فيها معززا مكرماً بين أهل بلده وموضع إعجاب الكثيرين منهم . ولقد جعلته غرابة زيه وتفرده فى أخلاقه وفى طريق تفكيره ونظره للأشياء محلا لعطف البعض ولقضاء شهوة الطلعة عند الآخرين ، وما كان ليضن على هؤلاء بنفسه وقد كان يقضى معظم وقته فى العابات وعلى شواطئ بحيرة ليمان . بل لقد مد لنفسه فى متاعها فطاف حول البحيرة تصحبه تريز وجماعة من أصدقائهما .

ورجع إلى باريس على عزم العودة إلى جنيف أول الربيع . لكن جو جنيف تغير عليه بعدما نشر كتابه كما أن صديقته مدام دلاليف دبناى تعلقت به ولم ترض فراقه وأضافت إلى قصرها بالشيفرت عند منتهى حدائقه على مقربة من غابة (مونمرنسى) بيتاً صغيراً مؤلفاً من خمس غرف وما يلزمها أحسنت نظامه وتنسيقه وذهبت بعد تمامه ومعها جان جاك وعرضته عليه قائلة : « إنها الصداقة تهبك إياه . وآمل أن يبعد عنك تلك الفكرة القاسية فكرة ابتعادك عنى » . ولقد كان هذا البيت أكثر ما يكون ملاءمة لمزاج روسو . صومعة منفردة وسط الغابات والحدائق يجد فيها كل ما يرجوه من لذائذ الوحدة والسكون والطبيعة فى أجمل مظاهرها . لذلك فلقد كفى هذا العرض وبعض الرجاء لتكسب مدام دبناى موافقته على البقاء إلى جانبها .

« ومما ساعد على تكوين هذا العزم عندى إقامة فولتير على مقربة من جنيف . فلقد وقر فى نفسى أن هذا الرجل سيثير البلد ضدى وأنى متى ذهبت وجدت فى وطنى العادات والأفكار والأخلاق التى أخرجتنى من باريس فاضطر لمناضلة ذلك كله نضالا دائماً » . ولا يعجبن القارئ من ورود هذه الكلمة على لسان روسو متى عرف ما كان بينه وبين فولتير وعرف أن كل واحد منهما كان يمثل الطرف المناقض للآخر فى كل شىء . فقد كان فولتير ممثل الحياة الاجتماعية فى أشد مظاهرها صناعة وأكثرها إفسادا : التحكم والإلحاد . فى حين كان

روسو داعية الطبيعة ومحبذ الدين . وكان فولتير رقيقاً وسيئاً فى حين كان روسو خشنا وطيباً . وكان فولتير غنياً ومن طائفة الأمراء فى حين كان روسو فقيراً ومن عامة الشعب . وكان فولتير محققاً فى السياسة فى حين كان روسو خياليًّا فيها ، وكان فولتير استبداديًّا فى حين كان روسو جمهوريًّا . وكان فولتير ملحداً فى حين كان روسو متدينا ، وكذلك كان كل منهما نقيض صاحبه على خط مستقيم .

وكانت مدام دبناى من سيدات ذلك العصر اللائى أولعن بالكتابة وادعين التفكير وعملن على أن يضممن إليهن كبار المفكرين والكتّاب . وقد تعلقت بروسو ووجدت فى شخصه وفى حديثه ما حببه إليها حتى قالت فى بعض مذكراتها : « إنك لا تتصور مبلغ ما كنت أجده من اللذة فى محادثته » . وقالت واصفة شخصه وخلقه : « إنه لمداح من غير أن يكون ملقاً ، أو بالأقل من غير أن يظهر عليه ذلك . ولكأنه لا يعرف عادات الجمعيات الراقية . لكن من السهل أن ترى ما هو عليه من عظيم العقل ، وهو أسود الشعر ذو عينين تتقدان فتحييان صورته فاذا تكلم ونظر إليه الإنسان رآه جميلا . أما إن ذكره فيما بعد فإنه يراه قبيحا . (ولقد كتبت هذه المذكرات بعد أن تمت بينه وبينها القطيعة) .

وهذا التعلق به هو الذى جعلها تقيم له صومعته وتضع له فيها أثاثا جميلا . وفيما كانت هى فى ترتيبها كان روسو يعد نفسه للانتقال إليها لأول تمامها . وساعده إذ ذاك أنه لم يكن فى حال من الفقر تقعد به عن كل عمل .

وانتقل إليها فى التاسع من أبريل سنة ١٧٥٦ ومعه تريز وأمها . وكان أول همه أن ترك نفسه تأخذ مما حولها من المناظر الريفية . فبدل أن يبدأ بترتيب مستقره بدأ بترتيب رياضته ونزهه فلم يترك من غده طريقا ولا مجتمع أشجار ولا حزن ولا بطناً مما حول مسكنه إلا اكتشفه . فلما قضى شهوته من ذلك رجع يرتب كتبه وأوراقه ويفكر فيما يريد تأليفه .

وجعل يعيش مما معه ومما كان يكسبه من نقل الموسيقى : قال : « ولقد كان فى طوقى أن أتجه إلى الناحية الأكثر كسباً فأنزع بقلمى بدل قصره على النقل – لتحرير كتابات تضمن لى إذا جمعت بين حسن اختيار الكتب ومناورات المؤلفين عيش سعة بل عيش رخاء خصوصاً بعد الذى نلته من شهرة لم يكن من الصعب على أن أحتفظ بها ، لكنى أحسست أن الكتابة لكسب العيش من شأنها أن

تخمد نبوغى وتقتل ملكة كان محلها قلبى أكثر مما كانت متعلقة بقلمى . ويرجع وجودها إلى طريقة فى التفكير راقية أنوفة هى وحدها التى تغذيها . وليس للقلم المتجر به أن يخرج للناس شيئاً قوياً ولا شيئا عظيماً . أما الحاجة والطمع فيلجآن للإكثار من الكتابة لا لإجادتها » وبقى مشتغلا بنقل الموسيقى وببعض كتابات غير ذات شأن كما اشتغل بالقراءة وبتلخيص بعض كتب كلفه أصحابه بتلخيصها . وسمحت له وحدته ومراجعاته نفسه ومناقشته أفكار من يلخص له بتدقيق فكرى لم تكن كتاباته الأولى لتنم عنه . لكن ذلك التدقيق لم يخرجه عن الطريق الذى رسمه لنفسه من قبل بل زاده إمعاناً فيه وتوثقاً منه . وتجلى له من جديد : « إن المبادئ التى وضعها حكماؤنا ليست إلا الخطأ والجنون . وإن نظامنا الاجتماعى ليس إلا الضغط والتعس » . وانتقل ذلك الاعتبار من فكره لإحساسه كما هى عادته . وقوى فى نفسه وتحكم فيه حتى ملكه ودفعه ليطلب تغييرا يتفق مع مبادئه . فأراد أن يغير زيه على نحو ما فعل قبل ذلك لولا أن رأى أصحابه فى المسألة ما يشينه فمنعوه عن أن يتمها .

« ولقد كنت طيبا إلى يومئذ . أما من ذلك الحين فقد تملكتنى الفضيلة أو على الأقل سكرت بخمرتها . وابتدأت النشوة فى رأسى وسرعان ما انتقلت الى قلبى واحتلت الأنفة الشريفة نفسى قائمة على أنقاض الغرور الذاهب . ولم أظهر للناس من ذلك شيئاً ولا ادعيته . بل بدوت على حقيقتى وظللت السنين الأربع التى كانت هذه النشوة خلالها فى ريعان قوتها ولا يعجزنى ما يمكن أن يحتويه قلب الإنسان من عظيم أو جميل » .

فى هذه السنوات الأربع ابتدأ يفكر فى الكتب التى وضعها تفكيرا جدياً ، وكتب منها قسما غير قليل ظهرت فيه روحه مشبعة وبلاغته البديعة مظهراً غريبا . وفيها ابتدأ يعلو ويرتفع ويعرفه الناس جميعا « فلم اك ذلك الرجل الخجول تواضعا . والذى لا يجرؤ أن يظهر أو أن يتكلم . فإذا وجهت إليه نكتة ضايقته وإن نظرت إليه امرأة احمرّ وجهه خجلا ، بل كنت أسير جريئاً أنيقا غير مهتم لشىء وأذهب إلى حيث أشاء بثبات يزيده قوة ما كان عليه من البساطة . ولأنه كان محتلا روحى أكثر مما كان فى مظهرى » .

ولقد يظهر هذا التغير فى أخلاق جان جاك غريبا فى بابه . رجل على

غروره الكبير كثير الخجل محب للوحدة مبتعد عن الناس يخرج فجأة من وكره ويخضع لحكمه من كانوا ذوى سلطان عليه لابد أن يكون قد طرأ عليه جديد غير من حاله . فماذا عساه يكون ذلك الجديد وكيف كان تأثر روسو به ؟

الجديد فيما نعتقد هو أن الفكرة التى دخلت إلى ذهنه ودفعته إلى تصور أن الناس جميعاً يعادونه ويريدون إلحاق الأذى به ، قد ابتدأت تقوى فى نفسه وتاخذ منها محل العقيدة . فأدت إلى حصول تطور عنده يلائم فكرته فيجعله يقوم للدفاع عن نفسه ولصد الأذى الذى يتوقع . ولما كان قد أقام نفسه لمناصرة الفضيلة ومحاربة الترف ولدعوة الناس إلى الرجوع إلى حالتهم الطبيعية التى تضمن سعادتهم كان طريق التطور ونوع الدفاع مرسومين أمامه مقدما . فاحتقار للعادات والعقائد السائرة وانتقاص من حكم غيره وطريق نظره .

وفى هذه الحال الجديدة أقام فى صومعته بجوار (الشيفرت) ممتعاً نفسه بمناظر الطبيعة ، معتقداً نفسه الملك على هذه المجاورات الرائعة مما حوله تاركا لخياله ولإحساسه ولعقله العنان يتخيل ويحس ويفكر على ما يشاء وكما يحلو له غير مهتم بحكم الناس عليه ولا بما يريدون من الشر به . وكأن لم يكن فى عالم جان جاك يومئذ غير شخصه وغير تريز وأمها . وإنك لتراه فى اعترافاته عن ذلك الوقت مكرسا صحائف عديدة يصف فيها تريز وطيبة قلبها وغباوة عقلها وانقيادها الأعمى لأمها وفساد نفس هذه الأم وتحالفهما مع خصومه على الوقيعة به وما يقاسيه هو لذلك من شقاء . أما ما سوى هذا من تفصيلات الوقائع التى يذكرها عادة فهو هنا يمر عليها مر كأن لم تكن فى حياته شيئا مذكورا . قال :

« ودفعنى تذكرى لمختلف أيام حياتى أن أفكر فى الحال التى وصلت إليها فرأيت نفسى فى منحدر العمر فريسة آلام قاتلة وخيل لى أنى أقترب من ختام أيامى ولم أتذوق تذوقا كاملا أياً من الملذات التى يريدها قلبى » .

وإنما كان يقطع عليه سبيل خيالاته وأحلامه شخص له عليه كل السلطان فلا يستطيع له ردا . تلك هى مدام دبناى . فلطالما أفسدت عليه ترتيباته للراحة أو للعمل ولطالما دعته من صومعته إلى قصرها بالشيفرت وهو أقل الناس ميلا للخروج من وكره . لكنه كان يحبس دائماً بيدها عليه . كما أنه كان يميل إليها بعض الميل

وإن لم يبلغ ميله الهوى . لذلك تراه لا يذكر تحكمها بشيء من الثورة كما هى عادته حينما يكتب عما لا يحلو له .

وهون عليه هذا التحكم من جانبها أو أنساه إياه ما كان فى نفسه يومئذ من خيالات الحب والهوى والهيام . ولكأنه بعد إذ بلغ الخامسة والأربعين يريد أن يستعيد أيام الشباب الأولى . وليس ذلك عليه غريباً . فلقد ظل طول عمره شاب القلب مهتاج العواطف . ولما لم يجد يومئذ شخصاً يهديه قلبه جعل يسطر ما يجول به فى صورة خطابات متبادلة بين عاشقين فيرضى بذلك شهوة نفسه حيث يتسمع على ما يجول فى حنايا فؤاده ثم ينتزع من خياله شخصاً موهوماً يتبادل وإياه نجوى الغرام .

هذه الخطابات الأولى هى مبتدأ روايته (جولى) أساس الرومانتيزم الذى حكم بسلطانه بعد ذلك على أدب القرن التاسعْ عشر . وعجيب ذلك وقد كان روسو يوم كتبها أبعد ما يكون عن التفكير فى وضعها رواية وإبرازها لتحدث ما أحدثته (الهلويز) من الأثر فتقلب أدب أمة بأسرها وتخرجه عن الطريق التى كان يسير فيها طريق التعقل الفنى لتدفع به إلى لجج الإحساس والتخيل . وإنما أراد بها إرضاء شهوة وقتية قامت بنفسه وتحكمت فى فؤاده . ولكن هذا هو الشأن فى أحوال العالم : تنقله شهوات النوابغ والعبقريين إلى أطوار مختلفة أكثر مما ينقله عمل العاديين أجيالا متعاقبة .

ولقد حدث لروسو يومئذ حادث لم يكن يتوقعه عين له طريق الرواية . وذلك الحادث وما مر بحياة روسو إبان مقامه بالشيفرت هو ما يعنينا الآن . أما الرواية وشأنها فسنعود إليها فيما بعد مفردين لها فصلاً مستقلاً .

ذلك الحادث هو تفضل مدام « دودتو » بزيارة روسو فى صومعته . ومدام « دودتو » هى زوج أخى مدام دبناى ورفيقة « سان لامبير » صديق روسو الحميم . وكانت يومئذ فى الثلاثين من عمرها . ولم تكن جميلة إذ أتلف الجدرى وجهها ولا كانت عيناها ذواتى جاذبية أو نفاذ لكنها كانت جميلة القوام حلوة الابتسامة جذابة الحديث لطيفة العشرة . فما رآها روسو لأول مرة حتى أخذ حلو حديثها بمجامع قلبه . فلما زارته للمرة الثانية أولع بها حبًّا ووجد منها الشخص الذى ...

قلبه ويعطيه فى منحدر أيام حياته بعض اللذائذ التى جن بها فؤاده . وإلى القارئ ما تركته هذه السيدة فى نفس روسو . قال :

« رجعت فرأيتها فانتشيت بسكرة الحب التى لم تقف عند شخص معين بادئ الأمر ثم وقفت عندها ورأيت جولى — وهو الشخص الخيالى الذى يكاتبه — ممثلة فى مدام دودتو ثم نسيت كل شىء إلا مدام دودتو لابسة كل معانى الكمال التى كان قلبى يتوق لها فى تلك اللحظة » .

ولست أدرى إذا كان حب جان جاك لمدام دودتو هو حب رجل لامرأة أو هو حب مؤلف لمن يراها المثل الأعلى للشخص الذى يريد تمثيله فى روايته والتى تصلح بذلك لتقدم له أغزر مادة للتأليف ممكنة . فكثيراً ما يأخذ المثل (الموديل) بمجامع قلب المؤلف أو الرسام أو النحات . بل كثيراً ما يكون أساساً لصداقة غرامية هى مهما خالطها من معنى الغرام لا تتعدى حدود الصداقة . ويخيل لى أن ميل روسو لصاحبته كان من هذا النوع أن كان حلو حديثها يوحى لهذا المعتزل فى صومعته من بديع المعانى ما يكفى لمادة خطاباته العاشقة التى كان يكتب . ومهما قال لنا فى اعترافاته أن هذا الحب بلغ به الهيام بل إنه جن بمدام دودتو جنوناً فإن حالة روسو النفسية وميوله كمؤلف كانت أشد على عواطفه أثراً من مدام دودتو وقوامها وحديثها وعشرتها . وإن ما فى روايته عن تذكارات احتماعاتها لما يؤيد هذه الفكرة بما هو عليه من الصورة الروائية التى لا نستطيع توهمها فى الواقع والتى لم يرد مثلها فى كل صداقات روسو النسائية قبلها ولا بعدها والتى لا يجد فى الإنسان مثيلا إلا فى الصور التى وضعها روسو فى روايته (جولى) قال :

« كان ما بين الصومعة (وأوبون) - مقام مدام دودتو — مسافة فرسخ . وكنت فى كثير من سياحاتى أمضى الليل بأوبون . ولقد ذهبت ليلة معها بعد أن تناولنا طعام العشاء فى خلوة وانحدرنا إلى الحديقة يكلؤنا نور القمر البدر .

وسرنا حتى وصلنا إلى نبع ماء تحيطه شجيرات أقامته هى بمشورة منى وأقامته ذكرا خالدا للطهر واللذة . وهناك بين الشجيرات وعلى مقعد من الحشائش تحت شجرة لبخ محملة بالزهور جلست إليها أناجيها بالكلمات التى تستطيع أن تعبر عن تموجات فؤادى . وكانت هذه هى المرة الأولى والوحيدة من نوعها فى حياتى . فكأنى كنت بديعاً لو صح أن نسمى بديعا ما يجىء به أرق الحب

وأقواه من كل لطيف جذاب إلى قلب المدنف الواله . ألا كم دمعة نشوانة أرقت عند أقدامها . وكم أراقت هى الأخرى من دمعات بالرغم منها ، ثم إذا بها صاحت فجأة برغم إرادتها : كلا ! ما بلغ إنسان مثل هذه الرقة ولا أحب محب كما أحببت أنت . . ولكن صديقك سان لامبير يتسمع علينا وليس لقلبى أن يحب مرتين . . فوجمت فى تنهد ثم قبلتها آخر قبلة وكان هذا آخر ما وصلنا إليه . وهى إذا كانت قد عاشت ستة أشهر منفردة بعيدة عن رفيقها وعن زوجها ، وكانت قد قضت ثلاثة أشهر وأنا أراها كل يوم أو أكاد فقد كان حب سواى قائماً دائماً بينى وبينها . وإذا كنا قد أكلنا فى خلوة بين الأشجار وفى ضوء القمر وقضينا ساعتين فى حديث ما أشده حرارة وأكثره رقة فهى قد خرجت جوف الليل من بين الأشجار ومن ذراعى صاحبها كما دخلت فلم يمسس قلبها ولا جسمها بسوء » .

وبعد ثلاثة أشهر من هذا الحب العذرى البرىء العاجز أبلغت هذه السيدة محبها أن حديث حبهما شاع وانتشر وأن رفيقها سان لامبير قد وقف عليه من مصادر غير صادقة الرواية وأنها تخشى مغبة ذلك كله وإن اطمأنت بعض الشىء أن كانت فى مكاتبتها رفيقها لا تفتأ تذكر روسو ومقابلاتها المتكررة إياه . وإنما كان يزعزع هذه الطمأنينة إلى حد يرسل الوجل إلى نفسها ما كانت تحس به من حبائل تنصب لها . فقد كان جرم فى الجندية ويتقابل الحين بعد الحين مع سان لامبير . وكان بين جرم وبينها أنها صدته يوماً حين أرادالتودد إليها . وبين جرم ومدام دبناى مكاتبات لا تنقطع تمكنه من الوقوف على دقائق ما بين روسو وصاحبته من العلاقات .

ولم تكن مدام « دبناى » بالهينة اللينة فى النظر إلى تلك العلاقات التى ألهبت قلبها غيرة وحركت فى جوفها تلك الفطرة النسائية القائمة على أساس من سلاحىّ الضعيف : الخديعة والمكر . فاندفعت وراءها ولم تترك سبيلا تمكنها من الحصول على أدلة مادية تقيم بها الحجة عند (جرم) وبالتالى عند (سان لامبير) على هذا الحب إلا سلكتها . ولقد وصلت من ذلك حتى أغرت (تريز) لكى تقدم لها الخطابات المرسلة من مدام دودتو . ولولا إخلاص تريز وادعاؤها أن روسو يمزق هذه الخطابات بعد قراءتها لملكت مدام دبناى

سلاحاً ماضياً ولما امتنعت عن أن تقيم به حربا شعواء على ضيفها وعلى زوج أخيها . وكذلك وقفت تريز فى هذا الظرف الدقيق موقف الأمانة لصاحبها ولم تترك لهاته السيدة الغيور سبيلاً لدرك غايتها ، ولم تخبر روسو بشيء من ذلك إلا بعد أن ضاقت بما حملت ذرعاً . هنالك أفضت له بكل شيء وأوقفته على ما كلفتها به مضيفتها وتركت له اختيار السبيل لملاقاة ما قد يكون من سيئ العواقب . فلما استأذن كلامها على سمعه دهش لأنه لم يلاحظ مع ذلك أى تغيير من مدام دبناى عليه . وبقى فى اختلاطه حتى إذا وصلته كلمة من مضيفته تسأله عن شأنه انفجر انفجار البركان ورد عليها قائلاً : « ليس فى طوق أن أقول شيئاً قبل الحصول على معلومات أوفى ، وسأحصل على هذه المعلومات عاجلاً أو آجلاً . على كل حال تأكدى أن العفاف المتهم سيجد مدافعاً عنه عنده من القوة ما يلزم القاذفين التوبة أيًّا كانوا » .

هنالك رأت مدام دبناى أن تمكر به وتتلاعب بطيبة قلبه . فكتبت إليه مظهرة أنها لم تفهم مراده ثم استمرت من ناحية أخرى تسعى للحصول من تريز على بعض المكاتيب التى تريد التمسك بها ، ولئن كان قد صادفها بعض النجاح عند تريز لشدة إلحاحها وبما استعملته من الحيلة وما أوغرت به صدر امرأة لم تعد ترى فى روسو أكثر من معين لها على الحياة فإن ذلك لم يفدها عند روسو إلا تشبثاً منه بالشدة والجفاء عزماً على القطيعة مما أنفد صبرها وأحفظ قلبها . ولقد زاد فى حفيظتها إن لم تبتّ عودة سان لامبير ما بين روسو ومدام دودتو من علاقة ولم يحصل إلا بعض جفاء شكا منه روسو لسان لامبير نفسه . على أن مدام دبناى كتمت غيظها ولم يبد منها ما يدل على التغير على روسو أو النفور منه ، ولكنها دفعت حزب جرم لتحقيره والنيل منه . ثم عرض لها بعد ذلك أن تذهب إلى سويسرا لزيارة الدكتور (ترنشون) ولاستشارته فى بعض شئون سرية يغلب أن تكون متعلقة بحمل أو نحوه . فطلبت إلى جان جاك أن يصحبها لتبعده عن باريس وعن مدام دودتو . فتردد بادئ الأمر وتلكأ لعلمه أن الدعوة لم تكن صادرة عن إخلاص . وبرغم نصيحة ديدرو إياه أن يتبعها فقد انتهى روسو بأن اعتذر عن إجابة طلبها اعتذاراً فيه بعض الجفاء . وهنا انتهزت مدام دبناى الفرصة لتشهر به ولتظهر إنكاره لجميلها فى أبشع مظاهره . وناصرها فى ذلك ديدرو وجرم وغيرهما

ولقد كان من أثر هذه المعاملة أن مكنت من نفس روسو وفى أعماقها عقيدة أن أصحابه جميعاً يريدون الوقيعة به وبلغ من ذلك حتى لم يبق لديه محل لسماع كلمة أو الأخذ بشيء يصدر عنهم . بل إنه ، ولا يزال فى قلبه من الود لمدام دودتو ما لم يغير تصرف سان لمبير من مظهره ، ليرفض مشورة هذه السيدة نفسها حين تشارك غيرها فى النصح له بمرافقة مدام دبناى فى سياحتها إلى جنيف برغم ما كان يجده من الوجاهة فى الأسباب التى تقدمت بها إليه .

ولما سافرت مدام دبناى ازداد روسو وحدة وازداد أخصامه عليه شدة . فأرسل له جرم كلمة يخبره فيها بتمام القطيعة بينهما وذلك على الرغم مما تقدم به روسو إليه قصد استدامة مودتهما القديمة . وبعثت مدام دبناى إليه بخطاب يحوى غير ما اعتاد أن يسمعه منها . ولما أرسل لها يخبرها أنه يرى مع اعترافه بسابق جميلها وجوب تركه الصومعة ولولا مشورة أصدقائه عليه بالبقاء حتى آخر الشتاء لأسرع إلى ذلك ردت عليه رداً كان من القسوة بحيث لم يدع له محلاً لفكر فقد بعثت إليه بما نصه :

(ما دمت قد أردت ترك صومعتك ورأيت ذلك واجباً عليك فإن حجز أصحابك إياك ليدهشنى . وإنى لا أستشير أصدقائى فى أمر واجباتى ولا أرى محلا أن أزيدك على ذلك فيما يتعلق بواجباتك) .

هنالك لم يبق لروسو محل اختيار وأقسم ألا يبقى بالصومعة بعد اليوم الثامن من وصول هذه الورقة له . وما لبث أن عرض عليه المسيو ما تاس مدير أموال البرنس دكوندى بيتاً صغيراً فى طرف حديقته بمونمرنسى حتى أسرع إلى الانتقال إليه .

لقد أطلنا فى استقصاء حوادث مقام روسو بالصومعة (الارمتاج) أن كان لهذا الزمن من أزمنة حياة روسو ولتلك الحوادث التى مر بها القارئ أثر مباشر على كتابته فى الهلويز وفى كتاب التربية . كذلك فقد دعانا لاستقصاء كل هاته الجزئيات أنها صورة من صور الجمعية الباريسية فى ذلك العصر الذى ترك فى التاريخ الأثر الخالد وكان مقدمة مباشرة للثورة الفرنسية . وتدل هاته الصورة أبلغ الدلالة على حال ذلك الوقت الاعتقادية والنفسية والخلقية . ففيه إيمان نخر السوس فى قوائمه ولكنه لا يزال قائماً . إيمان ضعيف يضطرب لدى كل ريح يهب عليه وينبئ عن أن السلطة الظاهرة الباقية للكنيسة ليست هى تلك السلطة

المتينة التى كانت فى عصر لويس الرابع عشر أيام القرن العظيم حين كان الناس جميعاً فى عبوديتهم للملك ممتلئة قلوبهم إيماناً بدين الملك. ولكنها سلطة موضع مناقشات وأخذ ورد : فإنكار عند فولتير ، وتحرير عند روسو ، وإثبات عند غيرهما . وقد أدى ذلك إلى تفكك كل الواجبات التى يحتمها الدين فى نفوس الرجال والنساء وجعلهم جميعاً بعد الذى أكرهوا عليه من القسر ينغمسون فى حمأة الترف ويتذوقون متلهفين لذائذ الشهوات . . ونفوس رأت فى هذا التفكك من قيود الدين القاسية فرجة ينفذ إليها من خلالها نور الحرية فارتفعت نحو هذا الشعاع وتريد أن تطل من هذه الفرجة إلى المتسع العظيم وراءها وتصور فى خيالها ما يمكن أن يكون هنالك . وتقع هذه الفرجة لدى خيال روسو فى حائط سميك هو المدنية يحجب عن الناس الضياء ويكاد ينهار فوقهم كما يحجب الفضاء الذى وراءها : تلك الحال الطبيعية الجميلة المملوءة بالسعادة والنعيم والتى لا تعرف فوارق الدرجات ولا حمأة الشهوات ، بل يعيش أهلها فى نعمة المساواة ممتعين بلذائذ طاهرة وأخلاق أرسلت تلك الفوضى الدينية والنفسية إليها اضطراباً سمح للناس أن يعيشوا أبيقوريين لا مطمع لهم فى الحياة غير اللذة ، يتخذ النساء خلاناً يعيشون معهن تحت سقوف أزواجهن ويتخذ الأزواج خليلات تعرفهن الزوجات ويحتملنهن ويسير المجموع ولا ضابط له .

والآن فإنا ننتقل مع روسو إلى مونمرنسى حيث قضى شطراً لذيذاً من حياته وإن لم يسلم فيه من لواذع أمراضه المختلفة وما كان يخيل إليه من تجمع أصحابه الأقدمين لإسقاطه . ننتقل معه بعد أن ترك الصومعة وتمت بينه وبين الرفيقين جرم ومدام دبناى القطيعة .

٨

خرج روسو من صومعته عند مدام دبناى فى ١٥ ديسمبر سنة ١٧٥٧ بعدما بقى فيها مدة بدأها وانتهى منها على أسوأ حال وسار فى أثنائها مرضه العقلى فى طريقه شوطاً غير قليل حتى أصبح ما كان يشعر به من قبل من حب غيره الوقيعة به ، وكأنه حقيقة مجسمة يرويها ويؤمن بها وينادى الناس معلناً إياهم أن عصبة تروم الفتك بسمعته وبصحته وبحياته . على أن هذا المرض لم يقطع عليه طريق عمله . بل لقد كان فى تلك الفترة أكثر ما يكون إنتاجاً من الوجهة الأدبية . فكتب قسماً عظيماً من هلويز الجديدة وكتب رده على دالمبير وهو ما سنعرضه فى هذا الفصل وكتب جزءاً من كتابه العقد الاجتماعى وقرأ وبحث كتب القسيس سان بيير ونشر منها جزءاً وفى هذه الفترة كانت العلاقة بينه وبين فولتير على أحسن ما يود أن تكون . وتبودلت بينهما خطابات كلها التلطف من جانب فولتير والإعجاب من جانب روسو ، وربما يكون ذلك بعض ما عزىَ روسو عن أصحابه الذين رآهم يتقلصون من حوله واحداً فواحداً .

وخرج من الصومعة إلى بيت عرضه عليه المسيو ماناس فى أحد أركان حديقته مونلدى بمونمرنسى وقضى أول أيام مقامه بهذا المنزل مثقلاً بالأمراض والمتاعب . وكأن ما مر به وما أصابه فى الزمن الأخير من اهتياجات وآلام جدد عنده الأمراض الكثيرة التى كان يعانيها . قال : « ولما رجعت من خيالات الصداقة وأوهامها وانقطعت عن كل ما حبب إلى الحياة فلم يبق لى فيها ما يهونها على نفسى لم أر أمامى إلا الشرور والتعاسات التى قطعت على كل سبيل المتاع وتمنيت تلك اللحظة التى أكون فيها حرًّا طليق أعدائى » .

وحسب روسو بخروجه من الصومعة إلى مونمرنسى أن أعداءه قد أسقط فى يدهم لقلة ما كانوا يتوقعون منه مثل هذه الحركة . وهو يستند فى ذلك إلى خطاب مؤرخ من جنيف فى ١٧ يناير سنة ١٧٥٧ ومرسل إليه من مدام دبناى هذه ترجمته (لم يصلنى خطابك المؤرخ ١٧ ديسمبر إلا أمس يا سيدى . ولقد وصلنى ضمن

صندوقة تحوى شتى الأشياء وظلت فى الطريق كل هذه المدة . وإنما أجيبك الآن عن حاشية الخطاب فإنى لا أجيد فهم الخطاب . ولو أن للتفاهم موضعاً بيننا لسرنى أن أحمل كل ما مضى على شىء من سوء التفاهم . أما عن الحاشية فلعلك تذكر يا سيدى أنا اتفقنا على أن ينقد البستانى أجره من مالى مناولة يدك أنت حتى يكون أكثر شعوراً بتابعيته لك اتقاء مثل ما حدث من سلفه من شحناء وسخافة . يذكر بهذا رد القسم الأول من أجره إليك واتفاقنا قبل سفرى بأيام على أن أرد لك ما دفعته أنت بعد ذلك . فرفضك قبول هذا المبلغ كما أشار به إلى (شويه) يقطع عندى بأن فى الأمر شيئاً . ولست أرى ما يبرر دفعك أجر بستانى برغم اتفاقنا ودفعك إياه حتى بعد خروجك من الصومعة . لهذا أمرت برد مبلغك إليك وأرى يا سيدى بعد تذكيرك بكل ما سبق ألا ترفض مبلغاً تكرمت بدفعه لحسابى) .

كان المنتظر أن يرتد جان جاك على أثر الخطاب عن عناده وأن يراجعه سابق ضعفه ويستعطف مدام دبناى عما قدم . ولكن مدام دبناى كانت بعيدة عنه ولم يكن عنده من أصحابها من يتسلط عليه فيرده إليها كما كانت لا تزال دامية فى فؤاده تلك الجراح التى خيل له أن عصبة مدام دبناى – جرم وديدرو ودلباخ وغيرهم – كانت عملت على إيغارها . لهذا لم يرد عليها ولم يقبل درهمًا مما قدمت وكان ذلك آخر العهد بينهما .

واستمر فى بيته الجديد وقد استقرت نفسه وهدأ خاطره واعتزم الابتعاد عن تلك التبعية للأغنياء والسيدات مما جر عليه البأساء كل أيامه . على أنه لم يبق عند عزمه هذا طويلا . ولكنه فى هذه اللحظة الحاضرة كان فى حال نفسية كرهّت إليه الناس ومعاشرتهم وزادت فى فعل مرضه الفتاك الذى سبقت الإشارة إليه . فرجع إلى أعماله واستمر يكتب خطابات هلويز الجديدة بذلك القلم الموسيقى العذب تدفعه روح مملوءة حرارة وإحساس متقد وشهوانية مريضة . وتدعم تلك العواطف التى كانت وبقيت فى نفسه بالنسبة لمدام دودتو . وسمحت له حريته الجديدة بالاستمرار فى ذلك على طريقة منتظمة . فلم يكن ثمة مدام دبناى لتدعوه وهو فى ساعة عمله لتسلى به ضيقها ، ولا كانت تلك الجمعيات الطويلة العريضة التى كانت تشغل القسم الكبير من وقته . بل أصدقاء من الشبان والشيوخ من أواسط الناس الذين لا يطالبوننا أن نعطيهم من أنفسنا أكثر مما نأخذ منهم .

وإنه لفى حياته الجديدة يقضى كل يوم ساعتين فى صباحه ومثلهما بعد الزوال فى مقصورة معرضة لبرد الشتاء القارس مشتغلا بروايته فرحاً بحريته إذ جاء جزء (الانسيكلوبيديا) حاوياً مقالا عن جنيف كتبه دالمبير بمشورة من ڤولتير ، ويقترح ضمن معلومات أخرى إنشاء مسرح فى جنيف تمثل فيه الروايات والقطع الهزلية . وكأن فولتير وقد أقام فى (الدليس) على مقربة من مدينة كالفن لم ير مشهداً لرواياته أقرب من جنيف ، فعمل على تحريض أهلها على إقامة هذا المسرح حتى يرضى بذلك شهواته وأغراضه .

فلما وقع نظر روسو على هذا الاقتراح اهتاجت أعصابه وتمثل له رأى ڤولتير متقدماً بيد مجرمة لإتعاس موطنه . لهذا لم يلبث أن أسرع إلى ترك عمله واقتطع كل وقته للرد على هذا الاقتراح . ولم تمض أسابيع ثلاثة حتى كان قد أتم الرد وهيأه للنشر ثم نشره وأسماه « خطاب إلى دالمبير عن المناظر » .

ولقد حاز هذا الكتاب نجاحاً عظيماً . فما لبث أن نشر حتى تخاطفته الأيدى وتتابعت منه مختلف الطبعات ، وانبرى للرد عليه كثيرون ، وظهر أكثر من أربعمائة مكتوب فى هذا الباب . وبسبب هذا النجاح انبتّ ما بين روسو وڤولتير وقامت العداوة بينهما عداوة لا هوادة فيها .

جاء فى الفقرة الخاصة بجنيف فى الانسيكلوبيديا والمشير بإنشاء مسرح للتمثيل بها ما يأتى « إن الناس يصدفون عن الكوميديا فى جنيف لا لأنهم ينكرون الملاهى لذاتها ولكن خشية ما تنشره فرق الممثلين بين الشبيبة من الميل للتبرج والترف والتورط فى الشهوات . على أن فى الإمكان مداواة هذا الفساد بسن قوانين صارمة ترتب سير الممثلين وبمراعاة الدقة فى تنفيذها وبذلك تجمع جنيف بين المناظر والأخلاق وتتمتع بما فى كل منهما من الفائدة . فيكوّن التمثيل ذوق أهل المدينة ويعودهم رقة التعامل ودقة الإحساس مما لا سبيل إليه بغير هذه الوسيلة ، وتستفيد الآداب من غير أن ينتشر الفساد وتجمع جنيف بذلك بين حكمة اللقدمون وتأدب أثينا . ولدينا اعتبار آخر جدير بما عرف عن هذه الجمهورية من الروية والتدبر يدفعها لإباحة المناظر . ذلك أن ما فى النفوس من إساءة النظر إلى حرفة التمثيل وما تكيله من الاحتقار لهؤلاء الرجال الذين يحتاج إليهم التقدم ويعتمد عليهم الفن الجميل هو من أهم أسباب ما تلومهم عليه من فساد فهم يريدون أن يعتاضوا

بالمسرات والملاذ عما ينقصهم بداعى مهنتهم من الاحترام والكرامة . ولكن لو أن الممثلين أدخلوا إلى جنيف وأحيطوا بأنظمة حكيمة وأدى لهم من الاحترام والحماية ما يكونون له يومئذ أهلاً ووضعوا مع باقى الناس على مستوى واحد من الاعتبار إذن لأتيح لهذه المدينة ما لم يتح لغيرها ، ولجمعت فرق ممثلين موضع التكريم والإجلال . ثم تصبح هذه الفرقة أحسن فرق أوربا وأرقاها حيث يلجأ إليها من ممثلينا من يعوزهم الاحترام بيننا فيرفعون بملكاتهم شأن فن دقيق . ويصبح المقام فى هذه المدينة التى يراها كثير من الفرنسيين قطوبة عابسة لعدم وجود مناظر فيها مقام المسرات الشريفة كما أنه اليوم مقام الفلسفة والحرية . ويومئذ لا يجد الأجانب غريباً ما يرونه من إباحة السخريات السخيفة الخالية من كل ذوق أو أدب فى مدينة لا يتاح فيها المناظر المهذبة المنظمة . وفوق هذا فإن المثل الذى تتقدم به فرقة جنيف فى رقى أخلاقها وما ينشأ عن ذلك من احترام الممثلين أفرادها يكون درساً للممثلين فى الممالك الأخرى ولغيرهم ممن يعاملهم إلى اليوم معاملة القسوة والشدة . وتكون هذه الجمهورية الصغيرة قد عملت بذلك لإصلاح هام فى أوربا أكثر بكثير مما يحول اليوم بخاطر إنسان .

هذا دالمبير يتقدم تحت تأثير فولتير يريد إنشاء مسرح للتمثيل الهزلى فى جنيف مدينة روسو ومسقط رأسه . وروسو هو صاحب خطاب الطعن على العلوم والفنون واعتبارهما أساس تعاسة الناس وشقاوتهم وعليه انبنت شهرته فلم يكن معقولاً إذن أن يترك كلمة كهذه تمر وهو صلد جامد . فرد رداً مطولاً نسج فيه على المنوال الذى نسج عليه فى الخطابين الأولين من الخطابة واستشهاد التاريخ ولكن على طريقة أقل حدة وأكثر تفكيراً . ولا عجب فى ذلك . فقد بدأ روسو بالطعن على العلوم والفنون ولما تختمر الفكرة فى رأسه وإنما كانت نزعة شعرية دفعته إليها أقدار المصادفات وأغلت أمره فيها عواطفه البدوية الجوالة ونزعاته المتشردة المستوحشة وميله للوحدة النفسانية . فلما رد عليه ستانسلاس وبورد بدأ يبحث وينقب يريد تعزيز الفكرة وإعلاء شأنها . وعلى أساس بحثه بنى خطابه فى عدم المساواة وأسبابها وآثارها . وفى كل هذه الأدوار والأطوار كانت نظرية الحالة الطبيعية أو بالحرى ذلك الخيال الذى صور هو به هذه الحالة يتجسم فى نفسه ويحتل مخيلته الشعرية ويملأ وجوده الأدبى ويصبح النواة تزداد كل يوم صلابة وقوة وتنبنى عليها كل يوم غلف وألياف وتستمر فى طريقها إلى النضج . ولم تكن روايته التى أقرت قدم الرومانتزم فى فرنسا

وفى أوربا ولا كتابه فى التربية ولا مبدأه السياسى الذى وضعه فى العقد الاجتماعى إلا آثاراً من تطور هذه الفكرة فى نفسه ، وكان هذا التطور نزاعاً دائماً إلى الجهة الشعرية مستنداً إلى المحيطات الخطابية ميالا به إلى الإغراب حتى أخذ كثير من الكتاب على روسو تناقضاً فى الآراء كان يؤدى به أحياناً إلى ضد ما قال . وربما صح هذا المأخذ فى بعض التفاصيل مما كتبه روسو . وأما مبدؤه هو ، الصادر عن نفسه فقد كان مبدأ واحداً ، وإن ظهرت فيه بعض علائم القلق فما ذلك إلا لأن القلق كان بعض علائم هذه النفس المضطربة السطح أشد اضطراب .

رأى القارئ من الكلمة التى كتبها دالمبير أنه لا يرى صعوبة تحول دون إنشاء مسرح فى جنيف غير تخوف أهل المدينة ما يتقدم به الممثلون للشبان من سيئ المثل ورأى ما طب هو به لهذا الداء وكيف اعتبره من السهولة بحيث لا يحتاج إلى أى عناء . فكان أول ما رد به عليه روسو قوله : « ما أكثر ما أجد من مواضع للمناقشة فيما أراك بكلمة قد حللته . فهل المناظر (الملاهى) حسنة أو سيئة لذاتها . وهل هى تتفق مع الآداب . وهل يمكن إباحتها فى مدينة صغيرة . وهل يمكن أن تكون حرفة الممثل شريفة . وهل تستطيع الممثلات أن تكن على جانب من العقل مثل سائر النساء . وهل تكفى القوانين لقطع دابر المفاسد . وهل يمكن مراعاة هذه القوانين مراعاة دقيقة . إلخ . . وهذه يا سيدى كلها أبحاث قد لا يكون قلمك غير جدير بها .

ثم أخذ يرد على هذه المسائل مسألة بعد أخرى جاعلاً رجل الطبيعة الساذج المثل الأعلى الذى يجب السير على مثله والنزوع إلى مثل حاله مقرراً أن المدينة بأذيالها من علوم وفنون واكتشافات واختراعات ليست إلا تدركاً إلى الشقاء والرذيلة . ولعل القارئ لم ينس أن روسو نسب العلوم على مختلف أنواعها من هندسة وفلك ومنطق وسواها إلى المفاسد المختلفة وإلى الميل للبطالة . وظاهر تغاليه فى ذلك وإغراقه . ولكنه أقل إغراقاً فى خطابه الجديد بل هو أميل إلى الصواب حين ينسب أصل الملاهى إلى ما تورثه البطالة من الملال وحين يعتبرها لذلك أثراً سيئاً لشر تجره المدنية . ولو أن الناس اعتادوا العمل وصرفوا ما زاد من وقتهم فى القيام بواجباتهم نحو عائلاتهم وأولادهم لما أخذت يوماً فكرة اللهو بنفوسهم : « فإن اعتياد العمل يجعل البطالة غير ممكنة الاحتمال والضمير الحى يطفئ فى النفس الميل إلى تافه المسرات ،

ولكن ملال الإنسان من نفسه وثقل حمل البطالة ونسيان الأميال البسيطة الطبيعية هى التى تحوجنا إلى المسرات الشاذة » .

ولما كانت فكرة التخلص من الملال هى أصل الملاهى والداعية إليها كان صنف المناظر إنما يعنيه منه ما يبعثه للنفس من لذة لا ما يقدمه لها من فائدة . فإن وجدت فيها الفائدة فمرحباً . ولكن مسرة الخاطر هى غرضها الرئيسى فمادام الشعب يبتهج بها فقد أدت هذا الغرض : وطبيعى أن الشخص الذى يريد إدخال السرور إلى نفوس الناس مضطر أن يميل مع ميولهم وأن يجاريهم فى أهوائهم فإذا نزعت به نزعة للطعن على شىء عندهم بلغ من التلطف فى ذلك حتى لا يترك طعنه أثراً يزعجهم . وكل مؤلف للملاهى يبتعد عن انتهاج هذه الخطة محكوم عليه فى رأى روسو بالسقوط وعلى عمله بالبوار . « ومن ثم فلا يصح أن تنسب للمسرح أية قدرة على تغيير العواطف أو الأخلاق الملزم هو أن يسير وراءها ويزيدها رواء وبهجة . ومن كتب ليواجه الذوق ويصادمه كان يكتب لنفسه لا لسواه » .

« ومن هذه الملاحظات المبدئية يتضح أن الأثر الذى تتركه الملاهى إنما يقتصر على تقوية الأخلاق الموجودة كما أنه يزيد الميول الفطرية ويجدد فى النفس نشاط كل الشهوات » . ويزيد هذا الاستنتاج قوة أن المؤلف التمثيلى يجتهد غالب الأمر لتبرير مركز أبطاله وإظهار أعمالهم طبيعية قدر الممكن . ولو أنه جعلهم جميعاً موضع طعن وتقزز لانصرف الأكثرون عن روايته لأنهم إنما يطلبون فى التمثيل ملهى لقتل وقتهم . . . وهذا النوع من عناية المؤلفين غير خاف على أحد . فما من رواية كان البطل فيها ميالا لأفظع النقائص بل الجرائم إلا جاهد المؤلف ليجعل من نقائصه وجرائمه بعض موضع للعطف عليه والميل له « ولو أن جرائم فدرو ميديا عرضت على الناس لكانت كراهتهم لهذين الشخصين أشد لدى سماعهم قصصها منها بعد إذ يرونها على المسرح » .

وأما ما يقال من أن التمثيل مدرسة يُعَلّم فيها فاضل الأخلاق بتحبيذه وينهى فيها عن المنكر بتقبيحه فهراء لا محل له ، لأن الناس أسرع ما يكونون سآمة للنصيحة الجافة ، بل تراهم يميلون غالب الأمر إلى عدم التصديق بإخلاصها . وهمهم الأكبر أن يروا على المسرح صورة ما فى الحياة الحقيقية مما يستفز منهم عاطفة الغضب أو الرضا والحب أو الكراهية والاستحسان أو الاشمئزاز أو غيرها . ويميل كل منهم

لذلك معتبراً فيه موضعاً للهوه لا محلا لإصلاح عوج نفسه . ولو أن أحداً استطاع هذا الإصلاح لكان له من مناظر الحياة الحقيقية ومشاهدها ما يدعوه إليه . ولكن الناس يسيرون فى الحياة بغرائز وأخلاق ولدت معهم أو كسبوها من الصغر وقواها فيهم الوسط الذى يعيشون فيه ، ولن يهدم ممثل فى سويعة ما بنى الوجود فى زمان طويل . وإنما يشجع الممثل فينا أميالنا ويدفعنا إلى الإغراق فيها بما يملق به قلوبنا أو مصالحنا .

وهذه الفكرة أبداها روسو فى كلمته لد المبير حين قال : (قلب الإنسان مستقيم فيما لا يتعلق بشخصه . فكل منا يؤازر العدل إذا اقتصر موقفه على مشاهدة خلاف يقع أمامه . وليس من سيئ الأعمال مالا يستثير سخطنا ما دمنا لا نفيد لأنفسنا من هذه الأعمال شيئاً . ولكن عواطفنا تفسد متى كان لصالح لنا فى الأمر مدخل . حينذاك ترانا نفضل الشر الذى يفيدنا على الخير الذى يصبو إليه طبعنا . وبذلك يعين الوجود الشرير على أن ينال فائدتين . واحدة يفيدها من ظلمه غيره والأخرى يستفيدها من عدل سواه . وأى فائدة له أكبر من أن يطالب الناس كلهم أن يكونوا عدولا إلا هو فيرد كل منهم إليه ما هو من حقه من غير أن يرد هو لأحد منهم حقاً . والشرير لا شك يحب الفضيلة . ولكنه يحبها صادرة عن سواه ليستفيد هو منها ولا يرغب فيها لنفسه لما يكلفه إتيانها من المشقة . مثل هذا الشخص يرى فى التمثيل ما يمكن أن يراه فى أى موضع آخر . يرى دروس فضيلة تلقى للشعب على أنه ليس منه وإناساً يضحون كل شىء من أجل واجبهم على ألا يطلب أحد منه شيئاً) .

وهل ترى الواحد منا إذا ذهب إلى التمثيل فتأثر بمنظر من مناظره يبقى تحت هذا الأثر زمناً طويلا ؟ أتراه إذا بكى لمصاب محزون أو حنق على شرير كثير الجرائم أو أولع حباً برجل فاضل أو بامرأة عفيفة يبقى فى حزنه أو حنقه أو ولعه أكثر من سويعة خروجه من باب الملهى ؟ بل لو أنه عرضت له مصلحة لحظة يكون التأثير بالغاً منه أشده مستدراً منه مدمعه أفتراه باقياً على تأثره حتى ليضحى مصلحته بسبب هذا التأثر ؟ كلا ! « وقد ذكر تاسيت أن فالريوس الآسيوى دافع عن نفسه لما اتهمته مسالين فى نفسها وأرادت به الهلاك عند الإمبراطور دفاعاً تأثر له هذا الأمير واستمطر عبرات مسالين نفسها . فانعطفت هى إلى غرفة مجاورة حتى يزول ما بها ولكنها لم تذهب قبل أن تسر فى بكائها إلى فتليوس ألا يطلق سراح المتهم . وما وقع

نظرى على متفرجة أبكاها التمثيل إلا ذكرت دموع مسالين وهذا البائس فالريوس الآسيوى » .

يضاف إلى ما سبق أن التمثيل لا يمثل صورة الحياة الحقيقية أبداً : إنما هو فكرة المؤلف يلبسها صور أشخاص يبدعهم خياله وينطقون بلسانه الداخلى الذى يعبر عن شخصية الفرد وفكرته فى كيفية السلوك بين الناس ليكون مقبولاً بينهم وممتعاً بنعم حياته الاجتماعية .

« وكذلك نرى كل شىء يضطرنا لإطراح هذه الفكرة السخيفة فكرة إمكان توجيه المسرح وجهة الكمال باستخدامه للمصلحة العامة » فهو لا يهذب الخلق ولا يناصر الفضيلة ولا يمثل الحقيقة ولا يزيد على سخرية أبدعها الناس لإضاعة الوقت . قال ميرالت : « من فاضح الخطأ أن يغرينا الوهم لنحسب ممكناً أن نرى على المسرح ما بين الأشياء من صلة حقيقية . ذلك أن الشاعر يلجأ غالب الأمر لتحوير هذه الصلات حتى توافق ذوق الشعب . فهو يحقر من شأنها فى (الكوميك) ويضعها دون المتعارف . ويكبر أمرها فى (التراجيك) لتتحمل ما يريده من بطولة فتصير بذلك فوق مطمع الإنسانية » . وما كان فوق منالنا بله مطمعنا لا يستدعى منا أكثر من التحديق إعجاباً به أو عطفاً عليه أو تقززاً منه . فإذا انتهينا من التحديق رجعنا إلى عالم الحقيقة مغتبطين أن أمضينا من الحياة وقتاً غير مملول . وما كان دون متعارفنا كان موضع استهزائنا وسرورنا بعظمتنا الكاذبة .

لم يقف روسو من نقد التمثيل عند هذا الحد . بل لقد وجه إلى (التراجيديا) مذمة أنها تستنزف من دموع المتفرج وشفقته بما لا يبقى عنده محلا لدمع يراق أو شفقة تبدو أمام آلام الحياة الواقعة . أما الكوميديا فترمى لغرض تعيس . ذلك أنها لا تطلب من الإنسان أن يكون فاضلا أو غير شرير ، بل أن يكون بعيداً عن موضع سخرية الناس وانتقاصهم وذلك بأن يندمج فى سلكهم ويسير على متعارفهم . وأكثر متعارف الناس الكذب والأضاليل .

وهذا موليير شيخ كتاب الكوميديا الفرنسيين . « اقرأه ثم انظر كيف يسخر من غير مبالاة بتعكير صفاء النظام القائم عليه الجمعية لغير سبب إلا ليضاعف أمازيحه وسخرياته . انظر بأى جرأة مخزية يعبث بأقدس الصلات ويهزأ بأوجب الحقوق احتراماً : حقوق الآباء على أبنائهم والرجال على أزواجهم والسادة على

خدمهم . هو بلا شك يصل من ذلك ليضحكنا . ولكن مهارته فى هذا تجعله أكثر مسئولية حيث يجذب العقلاء أنفسهم ليشهدوا من غير حقّ سخريات كان من الواجب أن تستثير غضبهم واشمئزازهم . قد يقال إنه يطعن النقائص . وإنى أدعو من شاء ليقارن بين النقائص التى يحاربها والنقائص التى يناصرها ثم ليحكم أى أصحابها أجدر بالملامة : فهل هو ذلك الرجل من أواسط الناس يدعوه بلهه وغروره ليحسب نفسه بين الأكابر أو هو ذلك الكبير اللص الذى يسرقه . ألم تُمثِل الرواية التى أشير إليها هذا الأخير الرجل الشريف وموضع الإعجاب . وهلا يصفق الناس طرباً بكل نكتة يؤذى بها الشخص الآخر – وهل هو ذلك الفلاح يبلغ منه الحمق فيتزوج من آنسة رقيقة مهذبة أو هى تلك الزوجة التى تسعى لتلويث شرف زوجها . فما بالك برواية يصفق فيها الحضور لخيانة وكذب وتبجح هذه الأخيرة ، ويضحك ساخراً من زوجها الذى لم يلق فى نظرهم إلا الجزاء الذى يستحقه – والبخل نقيصة لا شك كبرى – لكن أليست سرقة الابن أباه نقيصة أكبر منها – ثم ترى هذا الابن لا يحترم أباه ولا يأبى أن يوجه إليه ألف مسبة . فإذا غاظ الأب ذلك وبلغ منه الغضب حتى استمطر على ابنه اللعنات أجابه الابن فى سخرية : إنه فى غنى عن أعطياته . قد تكون النكتة ظريفة رائعة ، لكنها ليست لذلك أقل استيجاباً للوم ، والرواية التى تجعل الابن الوقح الذى قالها موضع العطف إنما هى مدرسة لفساد الأخلاق .

على أن أهم روايات موليير – (الميزانثرب أو الطيرة) – تحتمل من هذا النقد الذى وجهه روسو إلى رواياته عامة القسم الأكبر والأهم . فهذه الرواية تكشف لنا أكثر من كل رواية سواها عن الغرض الذى وضعه موليير نصب عينه فى تأليف رواياته وتسمح لنا أن نقدر نتائج هذا الغرض تقديراً دقيقاً . فإنه وقد أراد أن يمتدحه الشعب قصد إلى ما يتذوقه الأكثرون منه من صفات وخلق من صاحب هذه الصفات بطلاً ثم جعل من مضادات هذه الصفات شخوصه المضحكة . ومن ثم يتضح أنه لم يكن يرمى إلى حسن تصوير الرجل الفاضل ، وإنما كان مرماه مدح رجل الجمعية الظريف Homme du monde

وهو إذن لم يكن يقصد تقويم النقائص ولكن ستر العوج الظاهر . ولقد وجد من الالتجاء للنقائص نفسها آلة لدرك هذا الغرض . لذلك فإنه لما أراد أن يجعل

ما ناقض صفات الرجل الظريف ، رجل الجمعية ، موضع الهزؤ العام إختار الدور الذى يمجه الناس : دور عوج الفضيلة بالتشبث بها . وذلك ما عمله فى (الميزانثرب) .

والميزانثرب كما يعلم القارئ هى تلك الرواية البديعة التى وصف بها موليير الرجل الذى لا يعرف فى الحق والفضيلة مداجاة ولا مواربة والذى يقول للأعور فى عينه إنه أعور غير مهتم بصياغة ذلك فى قوالب الرقة والتظرف والنكتة الخلابة التى اعتادها القرن التاسع عشر فى فرنسا – والنساء والرجال عنده فى ذلك سيان . فهو لا يعرف كيف يطعن عند سيدة على قبعة تلبسها سيدة أخرى فإذا لبست الأولى مثلها امتدحها قائلاً إنما جمال القبعة بجمال لابستها . ولا يهتم وقد عرض عليه (أورنت) الشاب منظوماً شعرياً وضعه ويريد أخذ رأيه فيه أن يقول له آخر الأمر : إن الأولى بهذا المقطوع أن يطرح فى المرحاض . ويصل به التشبث للفضيلة ليعلن كراهيته للناس جميعاً (لأن بعضهم شريرون والبعض فى الشر متسامحون) . هذا الرجل هو ألسيست . وقد قابل به موليير فى الرواية فيلنت الظريف المتحبب صديق كل الناس والحلو اللسان لكل من حضر منهم . قابله به ليجعل ألسيست موضع ضحك الحاضرين . وهذا هو ما هاج روسو ضد موليير وجعله يعتبره أثيماً أيما إثم .

فإذا كان هذا هو شأن موليير فما بالك بغيره . وهل يعشى أحد فلا يرى ما يثيره هؤلاء فى رواياتهم من السموم الفاتكة بالأخلاق المضعفة للهمم اجتلاباً لمسرة الجمهور ولرضاه . وإنك لترى أكثر ما ترى النساء على المسرح أخذت بنواصى العرفان مدبرات حكيمات وما أبعد هذه الصفات عنهن ، وإنما يضع المؤلف الحكمة التى اختص بها هو وجنسه فى أفواههن وفى تصرفاتهن وفى حركاتهن فيبعث إلى نفوس النساء غروراً وتيهاً ويضعف الرجال أمامهن . وكيف لا يضعفون وهم يرون فى فم تلك المتشدقة على المسرح بدائع الأمثال وروائع الحكم فيحسبون للنساء فوق سلاحهن الطبيعى يتسلطن به على الرجال – سلاح التناسل – قوة أخرى من عقل راجح وذكاء متقد وفكر ثاقب . والحقيقة أن هذه القوة إنما هى قوة المؤلف وليس للنساء فيها أى نصيب . وتسلط النساء وضعف الرجال أمامهن فيه على الأخلاق العامة وعلى الملكات والقوى الإنسانية خطر ودمار كبير .

لا يعجب القارئ من هذه اللهجة فى الكلام عن المرأة . فقد كان روسو قليل

الثقة بها قليل التقدير لملكاتها . يحسب فيها مثالاً للشر ومغناطيساً يجذب الرجال على رقيهم عنها فى الجنس إلى الضعة والحقارة . ولذا نصح فى آخر الخطاب الذى نحن بصدده ألا يختلط الرجال بالنساء إلا فى ظروف خاصة . كما أن ما رسمه لتربيتها فى كتاب (أميل) لا يدل على احترامه لجنسها . ويخيل لنا أن هذا الخلاف بين المفكرين فى شأن النساء لا يمكن أن ينتهى إلا إذا تمكن النساء أنفسهن من وضع حد له بعملهن . وأما مادمن مقصورات على القيام بالوظيفة الطبيعية اللاتى يشابهن فيها إناث كل أنواع الحيوان قاصرات دون بلوغ أعلى المراقى الفكرية التى اختص بها الجنس الإنسانى فسيبقى من بين الرجال رحماء بهن وسيبقى إلى جانب هؤلاء الرحماء عدول قساة فى عدلهم مستمسكون بأن حقوق الأجناس وحقوق الأمم لا تتعلق بسوادها الأعظم ولكن بعبقرية النابغين فيها وقوتهم واستطاعتهم رفع هذا الجنس أو بعث الأمة إلى صف الاحترام والاعتبار . فما لم تخرج من بين النساء نابغة تقودهن جيشاً لتقرير حقوقهن فستبقى هاته الحقوق منحاً تحت رحمات المانحين إن شاءوا أفاضوا فى الكرم أو شاءوا ضيقوا الخناق .

ولسنا الآن بمعرض مناقشة هاته النظريات فلمناقشتها مكان آخر . وإنما يحسن بنا وقد وصلنا إلى ما وصلنا إليه من معرفة روسو أن نتساءل عن السبب الذى يجعله أميل إلى القسوة فى الكلام عن النساء مع ما كان له من الولع بهن . لقد كانت حياته كلها سلسلة تودد إلى السيدات وتعشق إياهن . فكان تشبابه مشتركاً بين مدام دفارانس ومدموازيل دبرى ومدام بازيل ومدام دى لارناج . ثم انتقل بعد ذلك ليتحبب إلى مدام دبناى ومدام دودتو وسينتقل من بعدهما إلى مدام دلكسمبور وإلى من سواها . فكيف به وهذه حاله وذلك تصرفه ميالا للانتقام منهن . . . أو – على الأقل – لتطبيق مبادئ العدالة القاسية عليهن ؟

يقول أخصام روسو : إن هذه إلا نزعة من نزعاته المتهوسة التى كانت تجعله يتناقض مع نفسه فى كل شىء فينادى بالمساواة والحرية ويطعن على الاستبداد وعلى امتياز الأشراف وهو فى كل حياته عائش فى كنف العظماء والعظيمات مطأطئاً لهم رأسه ، ويطعن على العلوم والفنون وقد أمضى حياته كلها ينقل نوت الموسيقى . ويكتب الروايات الغرامية وينقد التمثيل هذا النقد المر وهو كاتب (الميزجالانت . وملاك القرية) وغيرهما من الروايات التمثيلية ، ويكتب فى التربية ليودع أبناءه ملجأ

اللقطاء . فطعنه على النساء لم يكن إلا متابعة للسير فى طريق مناقضة نفسه بنفسه .

ولسنا ننكر على روسو بعض التناقض بل الكثير منه . كلا ولا نحن نقول إن أعماله كانت تسير على مقتضى ما تدفع إليه أفكاره . ولكن هل من بين المفكرين من يسير فى حياته العملية على آرائه ومبادئه النظرية . إنا جميعاً مكرهون على أن نعيش تحت حكم الوسط ولو خالف ذلك ميولنا وأهواءنا ، لأن الوسط هو الجو المستطاعة فيه الحياة على ما يملؤه من مكروبات وجراثيم فاسدة . ولكنا غير مكرهين على أن نفكر كما يفكر الوسط . ذلك بأن الإنسانية استطاعت بجهادها العظيم أن تحل قيود الفكر وأن تترك للمفكر أن يخرج فى جو غير عالم المادة المحيط به وأن يرتب فى ذهنه صورة الحياة على نحو ما يريد ، وأن يخلق لهذه الصور منطقاً يثبت إمكان بقائها فى ظروف سعيدة . لكن المفكر ملزم أن يعيش فى حياته المادية عيش سواه أو دون هذا العيش بالقناعة بما دون الكفاف . ولو كانت القناعة من شأن رجال الأدب فى القرن الثامن عشر لثبت تناقض روسو مع نفسه . ولكن هؤلاء كانوا جميعاً يعيشون عيش ترف حرم روسو منه شهوته . ومنعه عليه غروره وغلواؤه الكاذبان .

فانتقاص روسو من النساء إذن لم يكن مجرد اندفاع فى تيار التناقض ولا ميلا منه للإغراب . ولكن روسو كان من الأشخاص العاكفين على أنفسهم الميالين لتحليل ما يدور حولهم . وكان تقديره الأكبر للفكر والنظر . فلما رأى النساء أميل فى هذا الباب للتافه والضعيف بطبعهن لم يلبث أن حكم عليهن حكمه القاسى غير مهتم بقيمة الأمومة ولا بشدة العاطفة ولا بقوة الضعف النسائى . وزاده قوة فى يقينه ما كان عليه أكثر سيدات الطبقة التى أخذته فى كنفها من ادعاء الأدب . ولا شىء أتعس من دعوى النساء الأدب بله الفلسفة .

هذا هو أساس رأى روسو . وهذا هو ما جعله يرفع عقيرته ضد الحكم التى يضعها المؤلفون الروائيون فى أفواه الممثلات لما فى ذلك من استخضاع الرجال لجنسهن .

والمسرح يجر ضرراً آخر حينما يمثل العواطف وبالأخص عاطفة الحب على شكل يضعف النفوس ويذلها حتى لا تمتنع عن الانقياد وراء هذه العاطفة

ولو على حساب الفضيلة . وقد بلغ المؤلفون أقصى مدى التفنن فى ذلك ولم يعدموا يوماً أن يجدوا من الأعذار ما يبرر للمحب تضحية الواجب تحت أقدام عاطفته وعشقه . وهذا راسين أحد كبار مشايخ كتاب القرن السابع عشر الروائى يقدم لنا فى جل رواياته المثل عن ذلك.ولعلك تذكر يا سيدى رواية أظننا حضرناها معاً من بضع سنين وأحسسنا لمشهدها بسرور لم نكن نتوقعه . تلك رواية (برينيس) من روايات راسين . فلقد كان ميل من حضر هذه الرواية فى بدايتها ميل تحقير لهذا الإمبراطور الرومانى الذى يتردد كأخس الأخساء بين معشوقته وواجبه وازدراء لما يصحب به هذا التردد المخجل السافل من توجعات مخيفة تحط من مقامه الذى يعطيه التاريخ شيئاً من شبه القداسة . أما آخر الرواية فقد انقلب الأمر وصار الجمهور يشكو حال ذلك الرجل الذى كان يحتقره ، ويهتم لأمر عاطفة كان يجعله من قبل أثيماً بسببها ويتأوه فى دخيلة نفسه لما سيكره هذا الملك عليه من تضحية شرف بلاده . هذا هو الإحساس الذى كان يدور بنفس الحضور جميعاً . فلقد كان لدور (تيتس) أن يحدث فى النفوس أثره المرجو لو أن هذا المليك لبس الثوب الذى يليق به . لكن الناس جميعاً شعروا إنما كانت كل الأهمية لبرينيس لأن حبها هو الذى استدعى الحادث الحاسم وحدد نوعه . وليس ذلك لأن توجعاتها وتأوهاتها المستمرة كانت ذات أثر مؤلم فى أثناء الرواية ، ولكن لأنها فى الفصل الخامس سكتت عن التأوه ونطق مظهرها المحزون وعينها الجامدة وصوتها المختنق عن ألم مستسلم مجاور لليأس فاستدرت عيون الحاضرين حين حبست هى عينها عن البكاء . فهل معنى ذلك إلا أنهم تخوفوا ما قد يناله من طرد وما يصيب به ذلك قلبها من ألم . وهل لم يتمنوا جميعاً أن يطاطئ (تيتس) رأسه ولو دعا ذلك للمبالغة فى عدم احترامه . أفليست هذه رواية قامت بالغرض الذى وضعت من أجله وعلمت الناس كيف يجتازون محن الحب ويحاربون ضعفه » .

وكما يضعف المسرح الرجال أمام النساء فإنه بما يمثل فيه ينقص من احترام الشباب للكهولة وللشيخوخة ويضطر العجائز إلى التشبه بالشبان فى مرحهم ولهوهم وينزلهم بذلك إلى درك ما كان أغناهم عنه .

ليس إذن للتمثيل فائدة من أى جهة نظرنا إليه بل هو فى عجزه عن تقويم الأخلاق يستطيع كثيراً إفسادها . فهو يزيد شهواتنا تحكماً فينا ، ويفسد أعصابنا ،

ويضعفنا عن مقاومة أهوائنا ، ولا يكون لما يُحبَذ فيه من الفضيلة أثر إلا بمقدار ما يرضى أنفسنا رضاً مؤقتاً .

أما الممثلون فلا يستطيعون أن يكونوا مثال الفضيلة لأن وظيفتهم تقضى لهم بشيء من الإباحية المبهرجة يلزمهم نوعاً من الحياة لا يتفق مع مبادئ الصراحة والإخلاص . وكيف يرجى من شخص يقضى أهم وقته وأكثره ليكون غير نفسه أن يكون مثال الصدق والعدالة أم كيف نطالبه بالامتناع عن سلوك سبيل الإباحة فى أعماله وحياته بينا يقتضى فنه ووسطه الإباحة التامة ؟

« ثم ما هى براعة الممثل ؟ هى أن يقلد سواه ويلبس خلقاً غير خلقه ويظهر غير نفسه ويهتاج ودمه هادئ بارد ويقول ما لا يجول بخاطره بهوادة طبيعية ، كأن ما يقوله هو من بنات أفكاره ، وينسى مركزه لكثرة ما يقف فى مركز سواه . وما هى حرفة الممثل ؟ هى حرفة يعرض بها الشخص نفسه أمام الجمهور بثمن معين ويعطيهم حق تحقيره والاستهانة به مقابل الأجر الذى يدفعونه ويبيعهم شخصه بيع السلع المعروضة فى السوق . وإنى أستحلف كل مخلص هلا يشعر فى أعماقه أن بيع الشخص نفسه على هذا الشكل أمر دنىء سافل ، وأنتم أيها الفلاسفة يا من تدعون أنكم فوق الخزعبلات المتداولة . أفلا تموتون خجلا إذا ألبستم ثياب الملوك وقدمتم لتقوموا أمام الجمهور بدور غير دوركم ولتعرّضوا جلالكم لازدرائه وصخبه . . فالممثل إذن لا يفيد فى الحقيقة من حرفته إلا الدناءة والكذب وباطل الغرور والعبودية السافلة التى تجعله صالحاً لأن يكون كل الأشخاص إلا أشرفهم وأكرمهم — إلا أن يكون رجلاً » .

لكن التمثيل والممثلين هم خلق مدنية معينة وعصر معين فلا يمكن أن يكونوا خوارج على حياة بلاد وعصر أنبتاهما . إنما هم قسم من الحياة فى ذلك الزمان والمكان ومكروب من مكروبات جو المدن الكبرى أصبح جزءاً منه لا يمكن انفصاله عنه ، ولكن الجريمة كل الجريمة تلقيح جو المدن الصغيرة الصحيح الصافى بهذا المكروب الفتاك .

وهذا هو ما ينادى به روسو حين يقول : « فى مدينة كبيرة ملأى بالدساسين والعاطلين ومن لا دين لهم ولا مبدأ ممن أفسد خيالهم الكسل والبطالة وحب الشهوات وكثرة الحاجات ، فى مدينة كبيرة لا قيمة فيها للأخلاق ولا للشرف ، وحيث

يسهل على كل إنسان أن يبطن على الناس حقيقة أمره وألا يظهر لهم إلا ما يفيد مركزه ثم هو لا ينال من الاحترام إلا على مقدار ثروته . فى مثل هذه المدينة يتعين على أولى الأمر أن يستكثروا من الملاذ المباحة وأن يسعوا لجعل كل ما يوجد منها رقيقاً جذاباً إلى حد يبعد عن الأفراد ما يستهويهم إلى ، واها مما هو أشد منها خطراً . ومادام عمل الناس نبت شر كله ، ومنعهم عن العمل منعاً لهم عن مقارفة الآثام . فإن إضاعة ساعتين تخمد فيهما حركة الشر هو بمثابة محو جزء من اثنى عشر جزءاً من الجرائم التى ترتكب . فإن ما يقع فى الملاهى وملاجئ العاطلين من نميمة وغيبة وما هو شر منهما إنما هو كسب للآباء فى شرف بناتهم أو زوجاتهم وفى مالهم أو مال أبنائهم .

« أما فى المدن الصغيرة القليلة السكان حيث كل فرد رقيب بطبعه على كل من سواه لأن كل فرد واقع تحت النظر العام وحيث يسهل على الشرطة وأولى الأمر المراقبة والتدقيق فيجب اتباع مبادئ مخالفة لتلك كل المخالفة . فأما إن كان فى المدينة صناعات ومهن وفنون فالواجب اتخاذ الحيطة حتى لا يكون لدى الآهلين من دواعى اللهو ما يضعف فى نفوسهم الاغتباط بهذه المهن والتلذذ بالعمل فيها بما يزيد فى ثروة الأمير وتقتير الرعية . وأما إذا كان الناس يعيشون عيش البطالة ولا تجارة لهم فيجب ألا يحبب إليهم الخمول الذى هو أصيل فيهم بطبيعة العيش البسيط الذى يعيشونه . بل يجب على العكس من ذلك أن يكونوا بحيث لا يطيقون البطالة بالتزامهم خلق أعمال مفيدة يضيعون فيها ما فاض من وقتهم .

« وإنى أرى الناس فى باريس – وشأنهم فى الحكم على الأشياء أن يأخذوا بظواهرها لعدم وجود فراغ لديهم يسمح بالإمعان فى بحثها – يحسبون أن سكان مدائن الريف التى يوهم ظاهرها لصاحب النظرة الأولى بالهمود والبطالة هم قوم غرق فى سكينتهم المتبلدة ليس لهم من الحياة إلا عيش الاستنبات المميت أو الشحناء والخصومة ، وهذا خطأ سرعان ما يرجع الإنسان عنه متى ذكر أن الأكثرين من رجال الأدب المشهورين فى باريس وأن معظم الاكتشافات المفيدة والاختراعات الجديدة إنما تجىء إليها من هذه الأرياف الحقيرة فى نظر أهلها . . ولو أنك بقيت زمناً فى إحدى هذه المدن الصغيرة ، لم تحسب فيها بادئ الأمر إلا مكنات لا إرادة

لها ، لرأيت ، فضلاً عن أن الناس أكثر تعقلاً من القردة أهل المدن الكبرى ، أنك لن تعدم أن تجد فى بعض أركانها رجلاً دقيقاً يدهشك بمواهبه وأعماله ويدهشه منك أن تعجب به ، ويريك معجزاته فى العمل وفى الصبر والصناعة معتقداً أنه إنما يريك أشياء معتاداً نظرها فى باريس . تلك هى بساطة العبقرية الحقة . وليس هذا الرجل دساساً ولا كثير الحركة إذ هو يجهل طريق الألقاب والثروة ولا يفكر فى البحث عنهما ولا يقارن نفسه بأحد . كل ما يصدر عنه راجع إلى ذاته . لا تهزه مطاعن الغير وقل أن تسره مدائحهم . فإذا قدر نفسه لم يهتم بالسعى ليضعها فى المركز الواجب لها بل يبقى ممتعاً بذاته من غير اغترار » .

فمن الجريمة إذن تحويل أنظار أهل هذه المدن الصغيرة ، حيث العمل الجد والتواضع الجميل ، عن أعمالهم إلى اللهو بخلق مسارح يضيعون وقتهم فيها ويعتادون البطالة بها ، وتكون حملا عليهم فى نفقاتها ومثلا سيئاً لهم بممثليها الذين لا يستطيعون أن يكونوا صالحى الأخلاق . وليس معنى هذا أن يحرم هؤلاء الناس من كل متاع ، بل يمكن أن تكون لديهم أنواع المتاع البريئة التى عرفوا كل أيام حياتهم والتى تليق دون سواها بهم . وقد عرف روسو قوماً يقيمون فى جبل على مقربة من نيوشاتل ويعيشون ممتعين بالحياة أجمل متاع لأنهم يشتغلون معظم وقتهم ويقضون ساعات الراحة فى لهو برىء . فكل منهم يعرف الموسيقى وكلهم يغنى ويحب الغناء وكلهم يسر أكبر السرور بتمضية وقته مع الآخرين يتحدثون ويتناجون مبتهجين فرحين .

وهنا يذكر روسو مطولا ما يدعوه للاعتقاد بأن الممثلة لا يمكن أن تكون امرأة فاضلة وبضرورة عكوف المرأة على منزلها واشتغالها بالوظائف التى أعدتها الطبيعة لها ، ويرد بشدة على الكتاب الإباحيين الذين يقولون لم لا تتمتع المرأة بما يتمتع به الرجل ، وهل يعطى لنصف الإنسانية حق يسلبه الآخر قال : « يقولون وكيف يكون مزرياً بالمرأة ما لا يكون مزرياً بالرجل ولمَ يعد جريمة لأحد الجنسين ما يباح للآخر ؛ كأن كانت نتائج عمل الطرفين واحدة أو كان أدق واجبات المرأة لا ترجع إلى وجوب أن يكون لكل طفل أباً » .

ومن الجريمة إذن أيضاً خلق مسرح فى جنيف وهى مدينة صغيرة يقطنها عشرون ألفاً يعيشون عيش الفضيلة ويتمتعون بأنواع بريئة من اللهو تسلى وقتهم

ولا تصيب مدينتهم بسوء . . وسيان ارتاح الأجانب للمقام بها أم هم لم يستريحوا فليس من العدل ولا من حسن السياسة إفساد أهل الدار على أنفسهم لإدخال المسرة على الغريب النازح . كفى الباريسى الذى يحضر إلى مدينة كلفن أن يرى ما فيها من جميل المناظر وفاضل الأخلاق . وربما كان له فى الابتعاد عن موبقات تلك المدينة المضطربة ما يهدئ أعصابه ويعيد إليه بعض سكينته .

أما المناظر البريئة التى يرى روسو ضرورة الاستكثار منها فى المدن الصغيرة استبعاداً للسآمة والقلق من النفوس فيجب أن تكون على حد عظيم من البساطة والمقـــاربة للحال الطبيعية . ولو أن أهل جنيف كانوا على الفطرة الأولى وكانت مجاورتهم للمدينة الفاسدة لم تفسد عليهم بعض فضائلهم لفضل لهم روسو رقص الشابات العاريات كما كان يحدث فى إسبرطة . ولكن ذلك قد أصبح للأسف غير ممكن بفضل هذا الفساد فلم يبق إلا أن يستزيد أهل جنيف مما عندهم من أنواع الرياضة وأن يقيموا أعياداً عدة للسباحة والرماية وغيرهما : « أما أن تنقل إليها هذه الملاهى التى تشتمل عدداً قليلاً فى قاعة مظلمة يبقون فيها سكوتاً مبهوتين لا ترى أعينهم إلا المعاقل والسيوف والعساكر والصور المفزعة صور الاستعباد وعدم المساواة فلا . . بلى أى هذا الشعب السعيد . ليست تلك أعيادكم . إنما أعيادكم أن تجتمعوا فى الهواء الطلق تحت السماء الحرة تتمتعون بهناءتكم وسعادتكم . . ولا تكونن مسراتكم مخنثة ولا ممثلوكم سلعاً . ثم فلا يرسل ثمت إليها أى شىء مما يشعر بالخوف أو المنفعة . بل لتكن حرة كريمة مثلكم . ثم لتضىء الشمس ملاعبكم البريئة تكن قد أضاءت أكرم ما يمكن أن يسطع عليه نورها » .

أما فى الشتاء حيث يحول الطقس دون مثل هذه الملاعب والأعياد فليجتمع الشبان والفتيات فى بهو متسع تحت نظر ورقابة الأكابر والعجائز – لأن روسو لا يميل إلى اجتماعهم عادة أحراراً – ولبكن أهم غرض من ذلك أن يقع كل شاب على الفتاة التى يعد منها للمستقبل زوجاً . . وقد رتب روسو هذه الاجتماعات ترتيباً دقيقاً وأراد أن يجعل لرئاستها حكماً ينظر فى كل ما يحدث فيها .

هذا هو خطاب روسو إلى دالمبير عن المناظر . قال جول لمتر (وكما قدم روسو للثورة لغتها فى خطابيه الأولين فهو بخطابه هذا يعين لها أعيادها – وكذلك فسيبين لها فى عقده الاجتماعى فكرتها عن الحكومة) .

وانا نشارك روسو عقيدته فى أن المسرح لا يمكن أن يكون موضع درس أو تقويم للأخلاق ، ذلك لأن الأخلاق تتكون بالزمان وفى سنين طويلة وتحت آثار قوية شتى فلا يمكن أن يغيرها مؤلف أو ممثل فى سويعة . ثم إن اتجاه الإنسان ساعة ذهابه للمسرح يختلف عن اتجاهه ساعة ذهابه لقاعة الدرس بل هو يعاكس هذا الاتجاه الأخير ويناقضه . فالواحد يذهب إلى المسرح بفكرة اللهو وإضاعة الوقت فى إمتاع العين والأذن وفى إراحة النفس من عناء عمل الحياة . ولا شك فى أن الاتجاه والفكرة التى تحركنا نحو شىء من الأشياء هى التى تعين الأثر الذى يتركه هذا الشىء فى نفوسنا ، كما لا شك فى أنا حين نذهب بفكرة إضاعة الوقت نكون أبعد ما نكون عن فكرة الدرس والاستفادة .

ثم إن ما نراه على المسرح من الصور والمناظر وما نسمعه من مختلف الآراء ليس من شأنه أن يدفع إلى نفوسنا عقيدة تستقر عندها وتنطبع فيها ، بل هى لذة ساعة نلهو فيها بهذه الصور والمناظر والأفكار ثم ننساها وتبقى عندنا فى حيز الرواية والحكاية لا فى حيز العقيدة والاقتناع . وربما استشهدنا بها يوماً حين نقص خبراً أو نؤيد رأياً ولكنا لا نرجع إليها حين نرتبك فى أدق أمورنا الخاصة . والأخلاق والفضائل عقائد تتكون فى نفوسنا وتثبت فيها فنسير عليها فى حياتنا من غير بحث ولا تفكير .

أما أن المسرح يستطيع إفساد الأخلاق ففيه من روسو إغراق كثير ، ولكنه يحتوى أيضاً جانباً من الحقيقة . وما علينا إلا أن نرى ما تتركه الهزليات فى النفوس والأذهان والحافظات من الأثر ثم نقرنه إلى ما يبقى بعد الروايات الجدية لنرى أن السخف والسخرية أقرب للتعلق بالنفوس ، خصوصاً نفوس هذه الأجيال المادية الإباحية ، كما أن ما يسعى وراءه المؤلفون التمثيليون من تحليل الأخلاق وعرضها للنقد العام والاستخفاف بالبعض منها من شأنه أن يهدم بعض أركان الأخلاق المرتكزة على مجرد العقيدة من غير استناد إلى التعقل والبحث . ومن هذه الأخلاق الاعتقادية ما هو كبير الفائدة .

ولخطاب روسو هذا روعة تحبب إلى النفس قراءته وفيه أفكار وصور تجعله لذيذاً جذاباً . وهو أكثر سكينة ورزانة من الخطابين السابقين خطاب العلوم والفنون وخطاب عدم المساواة ، ويدل على أن روسو ساعة كتبه كان فى أهدأ

وأهنأ أيامه . وما لبث أن ظهر فى عالم المطبوعات حتى تخاطفته الأيدى وتعددت منه الطبعات .

وقد استثار هذا الخطاب حوالى أربعمائة رد عليه . على أن أهم الردود هما رد مارمونتل ورد دالمبير نفسه . ولم يمتنع فولتير أن يعاون مركيز (زيمن) فى الرد على روسو بعد ما اعتقد أن كلمة روسو موجهة إليه خاصة . فأما رد مارمونتل فسطحى ضعيف . وأما رد دالمبير فدقيق حشوه النكات البالغة والتقريع المر . وحسبنا منه هذه العبارة لنرى كم كاد فيه لروسو : قال : « إن الأكثرين من خطباء المسيحية يحكمون على ما لا يعرفون حينما يتكلمون عن الكوميديا . أما أنت فقد درست وحللت ووضعت بنفسك هذا السم القاتل الذى تسعى لذياده اليوم عنا . ثم نراك تطعن على رواياتنا وقد ألفت فيها بله ما شاهدت منها . قد أعلم رأيك فى أن الملاهى لازمة فى مدينة بلغت من الفساد ما بلغت تلك المدينة التى أقمت فيها زمناً طويلاً . وإنما لأهلها الضالين لا لأهل وطنك ألفت رواياتك . أى أنك يا سيدى قد عاملتنا معاملة تلك الحيوانات المريضة يقضى عليها قتلاً مخافة أن يمتد بها الألم . وقد كان لسواك أن يهتم بهذا الأمر ويوفر على حسن ذوقك مثل هذا الطعن بعد الذى كان بيننا لما ألفت من نجاح وإقبال أعلاك كشاعر وكموسيقى وجعل للتمثيل من الأنصار مبلغ ما صرفت عنه بلاغتك . لهذا فلن يضر الابتهاج بقراءتك الابتهاج بسماعك وستبقى طويلاً تعانى الألم أن ترى روايتك (ملاك القرية) تفسد كل ما استطاعت كتاباتك ضد المسرح أن تجىء به » .

وأما فولتير فقد رأى فى روسو العدو اللدود والعقبة الكؤود بعد نشر هذا الكتاب فجعل يطعن عليه بكل لسان ويرميه بكل مسبة ويفسد عليه كل سبيل . ولا عجب فقد كان هم فولتير أن تمثل رواياته على مقربة من مقامه (الدليس) بجنيف فإذا هذا الصائح ينفر عنه الناس ويخيفهم من أذى عمله ويقول لهم : « إياكم والروايات فهى مبعدة لكم عن الطبيعة مقربة إياكم من الفساد لأنها أبعد ما وصل الإنسان إليه فى التصنع والكذب والظهور بغير مظهره » . وإنا ننقل للقارئ هنا شيئاً من الخطابات المتفرقة التى أرسل بها فولتير لبعض أصدقائه بهذه المناسبة ليرى كم كان أبو السخرية مهتاجاً مضطرباً :

فقد كتب إلى دالمبير : « أصحيح أن روسو كتب ضدك وجدد شحناء مقال جنيف ، (وهى الشحناء الدينية التى سبقت الإشارة إليها) بل لقد بلغنى فضلاً عن هذا أن السخف بلغ منه حتى قام فى وجه التمثيل . وإنه فى هذا ليرتكب خطيئتين : فهو يطعن على فن عالجه ويكتب ضدك وقد أثقلته بالمدائح » :

وكتب بعد ذلك إلى (تيريو) : « أما عن جان جاك فإن جنيف كلها تهرع إلى التمثيل من كل صوب وحدب بالرغم مما كتبه هو ضـده وكذلك أصبحت مدينة كلفن مدينة المسرات والتسامح » .

ثم كتب إلى دالمبير : أتراك تجيب حقًّا على هذا المجنون روسو . هذا اللقيط ابن كلب ديوجانوس . . ثم كتب إليه أيضاً : أتنازلت لترضى فتقارع هذا المجنون جان جاك بالحجة والدليل .

وفى هذا الحين نشر خطاب عن التفاؤل كان روسو قد بعث به إلى فولتير ولم يسمح له بنشره . فلما رآه منشوراً طار صوابه وكتب إلى فولتير يحاسبه على نشره ويعاتبه ويلومه . ثم ما أسرع ما انتقل من لهجة اللوم والعتاب إلى المصارحة بالعدوان قال : « إننى لا أحبك يا سيدى حيث أذيتنى وأنا تلميذك والمعجب بك أذى بلغ منى . فقد أضعت جنيف حين آويتك وأبعدت عنى أهل وطنى جزاء لى على ما قمت به من تحبيذك والتصفيق لك بينهم . وأنت الذى تجعل مقامى فى بلادى غير محتمل وأنت الذى ستجعلنى أموت فى أرض غريبة محروماً من كل ما يتعزى به المائتون ، وملقى فى الثرى من غير أى تشريف فى حين أراك تلقى فى بلادى كل أنواع التكريم والتشريف التى يطمع فيها إنسان . . بلى . فأنا أكرهك وأنت الذى أردت ذلك . لكنى أكرهك كراهية رجل كان أجدر به أن يحبك لو أنك أردت محبته . ولم يبق فى قلبى من العواطف التى كانت فيه لك إلا إعجاباً لا يستطيع أحد أن يمنعه عن عبقريتك وإلا محبة مكتوباتك . وليس ذنبى أنى لا أستطيع أن أحترم إلا كفاءتك . ولكنى سأحترمها دائماً وأقدم ما يجب لها من الفرائض . وداعاً يا سيدى » .

وكان هذا الخطاب آخر العهد بين فولتير وروسو . فلم يرد عليه فولتير . ثم لم يفتأ بعد ذلك أن ينتقص من روسو كلما عرضت الفرصة بل كلما عرض اسمه . ولم يكتف بأن ينسب إليه الجنون والغرور والنقائص طراً بل ادعى عليه أنه انضم

إلى أخصامه فى جنيف وأراد الإضرار به . قال أميل فاجيه : « وكل ما هناك فى مكاتبات روسو أن روسو به غبرة من فولتير وأنه ينعى انحطاط الأخلاق فى مسقط رأسه ويعتقد أن لفولتير يداً فى المعاونة على هذا الانحطاط . أما ما سوى ذلك فمحض وهم من فولتير . وهو المتظنن فى كل شيء تظنن روسو وإن يك على شكل آخر . وإن تبادل العداوة بين هذين المصابين بحمق معاداة الناس طراً أمر يستحق النظر . وسنجدهما متواجهين عما قريب » .

وفى هذه الأثناء ظل روسو محتفظاً بما كان قد اعتزمه من الابتعاد عن الكبراء والعظماء . أو بالأحرى لم تسمح فرصة جديدة تخضعه لهم . فقد كان زواره (بمونلوى) جماعة من محبيه والمعجبين به من سواد الناس ومن ليس لهم دالة الشرف والثروة . ولهذا رأيناه أتم خطابه إلى دالمبير فى ثلاثة أسابيع واستمر فى كتابة روايته هلويز الجديدة . وقد كان أشد الناس التصاقاً به شاب اسمه (دلير) من المولعين بالأدب وعلى شيء غير قليل من الغفلة بلغ به حتى اقتاد رفيقته وصاحبتان لها إلى منزل روسو الذى انسل من الدار حينما علم بالأمر وتركها لهم . وقد أغضبه تصرف صديقه حتى ذكر له رفيقته بلفظ التحقير . وبعد تبادل الخطابات بينهما فى هذا الباب تنوسيت المسألة ورجعا لما كان عليه من حسن العلاقة .

غير أن روسو لا يمكن أن يعيش طويلاً على هذه الطريقة . إنه رجل ولد صغيراً وطعن على الكبراء بنغمة استلفتت الأنظار واستدعت الإعجاب فجعلته موضع عطف هؤلاء الكبراء أنفسهم بما ركب فى النفس الإنسانية من التناقض . وجعلته وهو الداعى إلى الحرية المحب للمساواة المنادى بالبساطة الطبيعية ينتقل من ظل كابر إلى ظل كابر آخر . لهذا فلم يطل به المقام فى « مونلوى » حتى تعرف بالمركيزة فردلن وبالبرنس دوكونتى وبالمرشال دلكمسبور وزوجته . ولم يمض بعد ذلك زمن طويل حتى انطوى تحت جناحهم وإن احتفظ بشيء من حريته التى كان قد فقدها تماماً فى كنف مدام دبناى ومدام دودتو وأصحابها .

وكذلك رجع العصفور إلى القفص من جديد .

٨

بقى جان جاك فى منزله بمونلوى حراً من قيود الكبراء مكتفيا بصداقة رجال ونساء كانوا جميعاً يودونه ولا يطلبون منه أكثر من مجرد الصداقة . ولقد ذكر فى اعترافاته أسماء الكثيرين منهم أمثال كونديه ومالتور والأب برتيبيه وغيرهم . وكان كلما أوغل فى وحدته وانقطاعه ازداد عقيدة أن أصدقاءه الأقدمين يعملون جميعاً يداً واحدة على الوقيعة به والقضاء على سمعته وشهرته . وكان أهم ما بلغه أنهم يشنعون عليه انقطاعه عن باريس إلى الخلاء وعلاقته بمدام دودتو ورفضه مصاحبة مدام دبناى إلى جنيف وتركه الصومعة . فلما بلغته هذه المطاعن زادته انكماشاً بل جعلته يفكر فى ترك التأليف والأدب ويبتعد عن الناس إلى الأرياف فلا يعرف عنه أحد شيئاً . وزاده تمسكاً باعتقاده أن زاره سان لمبير فى مسكنه الجديد وقص عليه أشياء عن مدام دودتو لم يفض روسو بها إلا لصديقه الحميم ديدرو.فلما استأذن كلام سان لمبير على سمعه أيقن أن ديدرو نفسه انقلب عليه وأنه أصبح ولا صديق له . فدس فى مقدمة كتابه إلى دالمبير عن المناظر كلمة استعارها من (الأكليز ياستيك) أشار بها إلى انقطاع الصلة بينه وبين صديقه مقلداً فى ذلك (مونتنى) حين أعلن للملأ على أثر انقطاع الصداقة بينه وبين الأب تورنمين خبر هذه الحادثة قائلاً : (لا تسمعوا لما يقوله الأب تورنمين عنى ولا ما أقوله عنه فقد انبت حبل صداقتنا) . لكن هذا التصرف الذى لاقى من الناس إعجاباً بمونتنى انقلب على روسو واعتبر مأخذاً جديداً عليه . فقد رد إليه سان لمبير هذا الكتاب حينما أهداه إياه وشفع رده بخطاب قدح به فى تصرف روسو أشد القدح ، وبلغ من ذلك أن أعلنه بانقطاع كل صلة بينهما.وكذلك خيل لروسو أن لم يبق له حتى ولا من القدر نصير . وظل وكل عزائه عن هذه المصائب المتتابعة أنه لم يقصد بإنسان سوءاً وأن قلبه أطيب القلوب .

وإنه ليظن أن قد تم انقطاع أصدقائه الأقدمين طراً عنه إذ وصله خطاب من المسيو (دبناش) يشكر له فيه إهداءه كتابه عن المناظر ويعتذر بكثرة أشغاله

عن عدم ذهابه إليه ويدعوه لتناول العشاء معه عند مدام (دوين) حيث يكون سان لمبير وفرانكى ومدام دودتو ويخبره أنهم جميعاً يودون أن يكون روسو من جماعتهم . فقبل روسو الدعوة بعد تردد . ولما ذهب فى الموعد المعين أحسن الحضور جميعاً استقباله فأصلح ذلك بعض الشىء من علاقاته بسان لمبير ، وإن لم يعدها إلى سابق شأنها . وكذلك كان الأمر فيما يتعلق بمدام دودتو ، كان من نتيجة ذلك أن أعاد إلى روسو سابق هدوئه .

وفى شتاء سنة ١٧٥٨ انتهى من كتابة الهلويز وفكر فى طبعها ونشرها وبعث بها إلى الناشر (رى) فى أمستردام . ولقد كان تصحيح مثل هذا الكتاب وطبعه مما يكلفه كبير عناء لولا أنه عرف فى ذلك الحين المسيو لا مونيون دى مالرب رئيس المكتبة الملوكية معرفة زادت توطداً مع الأيام وحببت كل واحد منهما إلى صاحبه وجعلت مالرب يستعين بمركزه لاستيراد (بروفات) الكتاب من أمستردام مع بريده هو من غير أجر ويرسلها لروسو كذلك ليعنى بتصحيحها وردها عن الطريق عينه مما وفر على روسو كثيراً قد كان يثقله لو أنه اضطر أن يدفع كل هذه النفقات من جيبه .

وفوق تفضله باستيراد (بروفات) الهلويز من أمستردام وردها إليها فقد أخذ المسيو مالرب على نفسه النظر فى الرواية وإجراء التصحيحات اللازمة لإمكان طبعها ونشرها فى فرنسا . ذلك أن حرية النشر لم تكن مبدأً مقرراً فى ذلك العصر كما هى اليوم ، بل كان من الواجب عرض أى كتاب قبل طبعه حتى لا يصادر أو يلقى القبض على صاحبه . ولقد كان دالمبير نفسه هو الذى قام بالنظر فى خطاب روسو عن المناظر ورأى أن لا مانع من طبعه . كذلك أخذ المسيو مالرب على عاتقه النظر فى الهلويز لهذه الغاية . وقد فصل عنها بعضاً مما فى النسخة الأصلية مما رأى أنه قد يمس إحساسات بعض أشخاص فى البلاط وبالأخص مدام دى بمبادور .

وكان من أفضال مالرب على روسو فوق ما سبق أن عرض عليه عن طريق المسيو مارجنسى وظيفة التحرير فى جريدة العلماء . وبعد تردد بين قبول ذلك المركز أو رفضه . فضل روسو الرفض ، قال : « لقد كنت أعلم أن امتيازى فى الكتابة راجع إلى حرارة فى النفس تمس ما أعالجه من الموضوعات ، وأنه حب

العظيم والحق والجميل هو الذى يحرك عبقريتى . . لكنهم ظنوا أنى أستطيع الكتابة بالحرفة كما يكتب كل من سواى من الأدباء . والحق أنى ما كتبت إلا تحت دافع شهوة الكتابة والفكرة » .

ومما زاد روسو تشبثاً بالرفض أنه كان قد اعتزم فى نفسه ترك الأدب والتأليف تقززاً من رجال الأدب ومن الكبراء وعجزاً عن السير على منوال هؤلاء فى نفقات كانوا يكلفونه إياها وهم يحسبون أنهم يسدون إليه النعمة ويتقدمون إليه باليد والجميل . وثبته فى عزمه ما أفاده من طبع خطاب المناظر وهلويز الجديدة التى لم تكن قد ظهرت بعد ، وما كان ينتظره من الكتب الأخرى ككتاب التربية وكالعقد الاجتماعى وكانا لما يقدما للطبع . لكن الأقدار قضت على روسو أن يعيش دائماً فى تناقض مع نفسه وفى نقض لإرادته . وإنه لعند عزمه هذا ورفضه مركز التحرير فى جريدة العلماء إذ عرضت فرصة ردته عن عزمه وأنسته سابق تصميمه ألا يكون له بكابر أوشريف علاقة واستدرجته من جديد ليخضع لنير الكبراء والعظماء .

فقد كان فى مونمورنسى قصر بديع بناه (كروازا) لأسرة مونمورنسى ثم آل بعد ذلك إلى دوق لكسمبور أحد مارشالات فرنسا . وكان المارشال وزوجه يجيئان إلى هذا القصر مرتين فى كل عام فيمضيان فيه خمسة أسابيع أوستة . فلما جاءوا إلى مونمورنسى بعد أن أقام روسو بها أرسلوا إليه رسولاً من عندهم يهديه تحيتهم ويدعوه لتناول العشاء بالقصر كلما طاب له ذلك . وكأن مدام دلكسمبور عثرت من روسو على ما كانت تطمع فيه كل سيدات ذلك العصر : أديب من الأدباء الظاهرين تحلى به دارها وتجعله زينة صالونها ويقوم عند الضرورة بخدمتها . لكن روسو وقد ذاق الأمرين من الاتصال بالكبراء اكتفى بشكر الرسول عن حسن عطف الدوق والدوقة عليه . وكان ذلك شأنه دائماً فى المرات التى تردد فيها الرسول . ثابتاً عند عزمه ألا يكون بينه وبين كابر تجارة بعد الذى رآه منهم . وإنه لكذلك فى بعض أيام ربيع سنة ١٧٥٩ إذ أقبل عليه دوق لكسمبور بنفسه ومعه بعض أصحاب له : « فلم يكن لى بعد ذلك من وسيلة للتخلص من رد زيارته والتقدم للسيدة زوجته برقيق التحية مقابل ما أبلغنيه من تلطفها إلا أن أكون غراً وقحاً . وكذلك بدأت تحت هذه الطوالع المنحوسة علاقات لم يكن فى مقدورى التخلص منها

برغم إحساس فى نفسى كان يجعلنى أخشاها أشد خشية » .

وكان أشد ما يتخوفه روسو مما سمعه عن مدام دلكسمبور من خبث الطبع برغم ما كانت عليه فى شبابها من جمال ورقة . وإنه ليعلم ذلك من زمن طويل مضى حيث كان قد رآها قبل هذه المرة بنحو اثنتى عشرة سنة حين كانت لا تزال تدعى دبوفليه باسم زوجها الأول . وقد وصفتها مدام دوفان يومئذ بقولها :

« إن دوقة بوفليه جميلة جمالاً لا تحتاج أن تجهر به . فخلقها (وجهها) كله الحياة والقوة ونظراتها تعبر عما يدور بدخيلة نفسها حتى ليسهل على قليل الملاحظة معرفة ما تفكر فيه من غير أن تقوله هى ، وحركاتها بديعة وطبيعية وتتفق مع كل ما تقول بحيث يصعب على سامعها أن يمنع نفسه فلا ينساق للتفكير والإحساس على مثالها ، ولها السلطان حيث تكون . وحيث تكون تحدث الأثر الذى تريد إحداثه ، وهى تنفق من فضائلها وأفضالها على طريقة الآلهة حيث تتركنا نظن أنفسنا أحراراً أمامها فى حين أنها تصرفنا كما تشاء ، ولها من قوة النفاذ إلى دخيلة النفس ما يجعلنا نضطرب أمامها ، ومن ثم كانت مدام دبوفليه مخوفة أكثر منها محبوبة . وهى تعلم ذلك ولا تسعى لتغيير رأى أعدائها فيها بالتودد أو بملاطفتهم بما يختلف مع شدة خلقها ، وإنما تتعزى بحسن رأى أصدقائها فيها وبما توحى به إليهم من العواطف الطيبة . وهى ذكية الفؤاد سليمة الذوق وفية لعهودها مخلصة لصديقاتها صريحة كتومة خدومة كريمة . ولو أنها كانت أقل بعد نظر أو أن الرجال كانوا أحسن نية لرأوا فيها منتهى الكمال ».وقال ولبول عنها وكان ذلك أيام عرفها جان جاك :

« لقد كانت غاية فى الجمال إباحية شريرة . واليوم ذهب جمالها وانفض من حولها عشاقها وصارت تحسب أن الشيطان يحوم بها ويقدم نحوها ، لكن تضعضعها هذا سكن من حدتها حتى صارت مداقة بمالها من نافذ الذهن وحسن الخلق » .

لكن خشية روسو إياها تطايرت كلها لأول ما قابلها . قال : « وما كدت أراها حتى خضعت لها أن وجدتها جذابة بديعة ذلك الإبداع الذى لا يعمل فيه الزمن ويعمل هو فى قلبى . وكنت أنتظر أن أجد حديثها مملوءاً بالوخزات والمغامز فلم يك شىء من ذلك ، وكان حديثها أحسن مما توقعت كثيراً ؛ فهو ليس ممتازاً

بالنكات ولا بالمفاجآت بل ولا بالدقة وإنما هى رقة لذيذة تسر دائماً ولا تضر أبداً .

« أما تملقها فأبلغ من السحر ؛ لأنه أكثر بساطة حتى ليظن الإنسان أنها تقول كلماته من غير أن تفكر فيها ، وأن قلبها يفيض بهذه الكلمات لا لسبب إلا لشدة امتلائه بها » . وإنما بقى لديه من أثر هذه الخشية شىء بعثت به إلى نفسه دوقة مونمرنسى زوج ابن دوقة لكسمبور التى لم تمتنع عن العبث به بعض الشىء مما أثار شكوكه المتحفزة دائماً أن تثور .

على أن هذه الشكوك ما لبثت أن زالت هى الأخرى بما أبداه له دوق لكسمبور من حسن العطف والعناية حتى لحسب روسو ذلك صداقة نزل معها الدوق عن كل اعتبارات الألقاب ليضع نفسه كمساو لصاحب خطاب المساواة . وأحس روسو لذلك بسعادة عظيمة ، وبلغ من عناية الدوقة به أن دعته ليكون فى الأكاديمية الفرنسية فتعلل بديانته البروتستانتية . فلما أظهرت له أن كل شىء ممكن إزالته بفضل الدوق وصداقته للملك أصر على الرفض قائلاً إن الأكاديميات التى ترفض أن يكون من بين أعضائها أفاضل أمثال تربسان وملك بولونيا ليس من كبير الشرف الانتساب إليها .

ولما زار الدوق منزله أول مرة وجده مهدماً غير صالح حتى اضطر روسو يومئذ أن يجلسه هو وحاشيته فى البرج الذى يشتغل فيه معرضين لقارس البرد ولافح الزمهرير . فلما عاد وحادث الدوقة واتصل ما بينهم وبين روسو عرضا عليه أن يقوما بإصلاح بيته وأن يقيم هو فى أثناء ذلك فى القصر عندهم ، وله الخيار ما بين غرف القصر نفسه أو الإقامة فى القصر الصغير . وهو بناء منعزل قائم وسط حديقة القصر المتسعة البديعة ينتشر فوق مرتفعاتها ومنخفضاتها وبين بطونها ووهادها أنواع الزهر والشجر وبرك الماء ويتوج أرفع بقاعها بناء القصر الفخم . أما القصر الصغير فقائم بين أشجار البرتقال من ناحية وبرك الماء من ناحية أخرى فوق عمد عديدة نظمت بحيث يتخللها الهواء ويذهب عنها الرطوبة . فإذا أنت نظرت إلى هذا البناء من الجهة المقابلة للماء خيل لك أنه جزيرة مسحورة أشبه الأشياء بالجزيرة الجميلة (Isola Bella) فى البحيرة الكبرى من البحيرات الإيطالية .

فى هذا السكن البديع كتب روسو قسماً غير قليل من كتاباته وبالأخص

من كتاب التربية . ولقد كان لهذه المناظر البالغة أقصى حدود الجمال أثر عظيم على ما كتب . وليت شعرى هل ينكر كاتب ما للوسط الطبيعى الذى يحيط به من الأثر العظيم عليه .

وحتى لا يقص من أطراف سعادته بما قد تحدثه كلماته المضطربة غالباً من سوء الأثر فى نفس مدام دلكسمبور لجأ إلى وسيلة زادته عندها مقاماً وزادتها به تعلقاً . فقد جعل يقرأ لها رواية الهلويز وكانت يومئذ لا تزال تحت الطبع . ولم يحتج روسو لأكثر من ذلك حتى بلغ إعجاب مدام دلكسمبور به أقصى الحدود وحتى أصبح عندها الكل فى الكل : « فكانت لا تتكلم إلا عنى ولا تشتغل إلا بى وتدللنى النهار كله بأحلى الألفاظ وتقبلنى كل يوم عشر مرات ، وجعلت مكانى على المائدة إلى جانبها ولم تسمح لسواى حتى من الكبراء بالجلوس فيه بل كانت تخبرهم أنه لى وتجلسهم فى غيره » . وكذلك أحاطت السعادة والسكينة بروسو وجعل ينهل منها ما استطاع . يقضى معظم نهاره فى القراءة لدوقة لكسمبور وفى صحبة الدوق فى رياضيات وسط الحدائق البديعة التى كانت تحيط بالقصر . ويقضى بعض الأوقات أحياناً مع تريز وينقطع أخرى لكتاباته وتصوراته . ولما انتهى من قراءة (الهلويز) طلبت مدام دلكسمبور إليه أن ينقل لها نسخة من خط يده أسوة بمدام (دودتو) وعرضت عليه أجراً مثلها . فكتب إليها يشكرها وردت عليه مقتبسة العبارة الآتية من كتابه : « أنت وإن كنت لا شك من خير الزبائن إلا أنى أجد بعض الغضاضة فى اقتضاء النقد منك بل أرى واجباً أن أدفع مقابل ما أناله من السرور بالكتابة إليك » ثم أضافت : « ولا أزيد أنا على ما تقوله شيئاً وإنى ليؤلمنى ألا تخبرنى بشىء عن أمر صحتك ولا شىء يهمنى أكثر منها فإنى أحبك من كل قلبى إلخ » . ومع خلو هذا الخطاب من كل مغمز فلقد قضى الوقت الطويل يفكر فيما تريده باقتباس عبارته . بل إنه ليذكر فى اعترافاته أنه وقد كتبها بعد عشر سنين من هذه الحادثة لم يزل عاجزاً عن فهم ما أرادته مراسلته . وأدى به الاضطراب لغير سبب إلى أن كتب إليها كلمة تكاد تكون جارحة العبارة يلومها فيها كأن شيئاً فرط منها . واكتفت هى بأن تعتذر فى خطاب لها – على الماشى – من غير تعليق على الحادثة بأكثر من إظهار عواطفها الطيبة بالنسبة له وعظيم حنوها عليه .

والظاهر أن روسو كان شديد التخوف من هذه الصلة الجديدة بالكبراء بعد ما لقى فى صلاتهم الماضية من متاعب وآلام فكان يهتاج لكل حركة يشعر ولو من بعيد بأن فيها شيئاً من الرجوع إلى الرق القديم . وهذا واضح فى تصرفه فى الرد على خطاب الدوقة إليه وواضح أيضاً فى مسألة بسيطة أقام الدنيا وأقعدها من أجلها . ذلك أن مدام دلكسمبور أهدت بعض الهدايا لمدموازل لفاسير (تريز) حتى لا تخل بعهدها مع روسو ألا تكون بينهما هدايا . فكتب روسو إليها ما يأتى « كلا يا سيدتى الدوقة . أنت لا تهدينى شيئاً وإنما تهدين تابعتى . يا للحيلة . أيليق ذلك بك أم أنت تحقرينى إلى حد تلجئين معه إلى مثل هذه الوسيلة ؟ إنك والحق يقال يا سيدتى إنما تقصدين إلى تذكيرى من أنا . ولقد كدت أنسى كل شىء إلا واجبى وكاد قلبى وقد زعمنى مساويا لكم أن يجترئ على الارتفاع إلى مرتبة صداقتكم ، لكنك تأبين على سوى الاعتراف بأفضالك ومن الواجب السعى لإطاعة أمرك » . هنالك ردت عليه مدام دلكسمبور بما يأتى : « أفيمكن ألا تكون ظالماً إلا بالنسبة إلىّ . ألست أنت الذى سمحت لى أن أعطى لمدموازيل لفاسير ثوباً منقوشاً على شريطة أن يكون قبيحاً . ولم يك إلا ما أمرت به ثم أراك يا سيدى تؤنبنى وتبعث إلى بخطاب فى غاية القسوة وتهددنى أنك لا تحبنى بعد . ولو أنى ناقشتك وعتبت عليك لقلت كل ما يدور بخاطرى ، ولكنى أفضل أن أنسى خطابك » .

وهذا الإحساس عنده بضعة مركزه لم يكن يفارقه . وقد كتب إلى دوق لكسمبور عدة خطابات كلها الخضوع والاستسلام والمحبة لا لشىء إلا لأن الدوق لم يكن يظهر له بمظهر له العظمة ويجعله يشعر بذلك الفرق الذى كان يهوله ويرعبه . ومما جاء فى بعض هذه الخطابات ما يأتى : « إن أفضالك أوقعتنى فى حيرة زادتنى رغبة فى ألا تقع هذه الأفضال منك على غير أهل . إننى أفهم كيف يرفض الإنسان مترفعاً ما يتقدم به من لا يحترمهم هو من الكبراء . ولكن كيف لى يا سيدى أن أكون كذلك معك أنت الذى حل من قلبى مكانة الشرف . وأنت الذى كنت أبحث عنك لأكون معك لو أنت كنت مساوى ونظيرى . اللهم إلا أن أنسى نفسى وأنكرها . إن ما رغبت عنه دائماً من العيش إلا مع الأصدقاء جعل لى لغة واحدة ولهجة واحدة لغة الصداقة ولهجة التبسط . ولست أجهل ما يقضى

به ما بين حالى ومركزك من تحوير هذه اللغة ، وإن احترامى لشخصك لا يعفينى مما يجب من ذلك لمركزك إلخ إلخ » . وأيضا : « نعم يا سيدى الدوق . أنت لا يدور بخاطرك مبلغ ما يجد الإنسان من اللذة أن يرى أن عدم المساواة قد تتفق مع الصداقة وأن الإنسان قد يكون له صديق أكبر منه »

وكان لروسو صديق أو بالأحرى معجب من مواطنيه يدعى كوانديه عرفه بمونلوى وجعل يتردد عليه ثم اتخذ اسمه وسيلة يتقدم بها فى كل الصالونات التى يغشاها روسو . فلما كان هذا الأخير يكتب نسخة (الهلويز) لمدام دلكسمبور تقدم كوانديه بعمل النقوش اللازمة فيها ، وفيما كانوا يوما فى القصر يطبع كوانديه الدوق على هذه النقوش وحان موعد انصراف كوانديه قال الدوق : (لنذهب راجلين نتنزه على طريق سان دنيس ونصحب المسيو كوانديه) قال روسو : « أما أنا فقد تأثر قلبى لهذه العبارة حتى لم أستطع دون تقبيل مواطئ قدم هذا السيد الطيب القلب » .

هذا هو الإحساس الدخيل الذى يختلج فى صدر كاتب خطاب عدم المساواة . ولعل شديد ما كان يعانيه من آلام هذا الموقف ، الذى يشعر به كل مفكر تجاه أرباب الألقاب والثروة شعوراً تختلف درجاته وقوته ، هو الذى أثار نفسه وهاج عواطفه ودفعه ليكتب بقلم من نار هذا الخطاب المملوء قوة وحماسة .

ولكن هذه الثورة تهز قلب صاحبها وترعش قلمه ما دام مطلق عنان الفكر الإحساس فى وحدته وفى أثناء كتابته . فإذا هو خرج للناس وجلس إليهم حكمه الوسط بقوانينه القاسية وقواعده الثابتة فراجعه ضعف الخضوع لحكمه والانحناء لما يملى به من وجوب الزلفى للبعض ومصافحة الآخرين . لكن روسو كان أكثر المفكرين ثورة بسبب جنونه الخاص الذى كان يدفعه للاعتقاد بأن كل الناس يحسدونه ويغمطونه حقه ، ويجعله شاعراً لذلك أنه فى حرب دائمة معهم جميعاً . وهذا الشعور هو الذى كان يظهر كمين ثورته حتى حين يجب إخفاؤها ، وهو الذى دفعه لتحرير خطاباته لدوق لكسمبور وردوده على الدوقة . ولولاه لاستطاع أن يعيش مع العظماء وبعيداً عنهم فى وقت معا وأن يستفيد من عبقريته احترامهم إياه احتراماً يجعله مطمئن النفس غير مهتم بحركاتهم هذا الاهتمام الأحمق .

وهذا فولتير ، وبه بعض ما بروسو من الحمق ، كان يعيش بين الأمراء والسادة عيش واحد منهم وله عليهم جميعا الدالة حتى لكانوا هم الذين يتزلفون إليه . والحق إنا نرى فى نفس الأكثرين من الكتاب والمفكرين ضعفاً لا نشاهده عند رجال العمل . وكان ما يجىء به التفكير من إضعاف الإرادة يستتبع إضعاف الذاتية فيضطرون لستر ضعفهم بأنفة مصطنعة وغرور مخلوق من عاطفتين متناقضتين : الاستسلام والثورة ؛ استسلام للبيئة وثورة داخلية ضد البيئة . لهذا ترى الكاتب لا يفتأ يعذب نفسه بالأمانى والأوهام . وتراه بينا هو فى قصر من آماله يكيف العالم كما يشاء خياله ويرتب المستقبل على حسب منطقه ويبنى ويهدم ويخلق ويعدم إذا هو لذعته لاذعة من لواذع الحياة مما قد لا يتأثر له إنسان سواه فاهتاج واضطرب وتهدمت الصروح التى بنى ولعن الإنسانية وصمم على العزلة وعلى ترك الناس وقد يندفع للتفكير فى الانتحار . ويمر هذا العاصف ثم تراجعه أحلامه ويراجعه وهم تشييد المستقبل أو التحكم فى الحاضر أو نحو ذلك من أوهام رجال القلم . وهكذا تنقضى حياته بين الوهم والحلم والخضوع والعزة حتى يدخل طى الماضى وينطوى ما كتب ليبقى مطوياً أبد الدهر أو لينشره مستقبل قريب أو بعيد فيحكم العالم ويحقق أحلام صاحبه وقد صار صاحبه تراباً .

ذلك كان شأن روسو . رفعته عبقريته إلى مراقى العظمة وأمسك به مولده وقعدت به ثروته بين الأصاغر والوضيعين . والعبقرية تحيط بالماضى والحاضر وتمتد إلى خفايا المستقبل فلا ينسى الشخص ما كان ولا من هو إلى جانب غيره ، بل هو أميل إلى الانتقاص من نفسه لأنه أكثر شعوراً بتفاهة الحياة وضعف الإنسان . ولو أن نبوغ روسو كان من نوع النبوغ العملى الذى يسير بصاحبه فى طريق تكوين الثروة وتقوية المركز المادى إذن لرأيت بدل هذا الخجول الكثير التفكير فى نفسه وغيره وقحاً من أولئك المتبجحين بالمال البالغين فى تبجحهم حد السماجة المعتبرين هذه السماجة من بعض مستلزمات حياتهم لحفظ ما يسمونه مركزهم . وإنى لعمر الحق لم أر فى حياتى منظرا تتقزز منه النفس وتشمئز الحواس أكثر من منظر أولئك الذين يصلون للثروة فيتبجحون . يكلمك الواحد منهم وهو يحسب أنك بعد هنيهة مستجديه وأنت سيده نفساً ، وأبعد الناس عن الحاجة إليه . ويبدى رأيه فى الشىء وهو يظن أن ما عنده من مال أفاده علماً فإذا هو لم

يزده إلا جهلا وغباوة . ويقدر أن الوجود وما فيه مقصور على المادة المحسوسة المحيطة به والتى يتوهم أنه يستطيع حكمها فيحسب نفسه ملكاً قديراً بل إلها ذا بطش وسلطان . أما النبوغ العقلى فينشر أمام ذهن صاحبه العوالم كلها بما فيها من محسوسات ومعنويات ويدعوه للنظر فيها جميعاً ولتعرف قوانينها وللحكم على مقتضاها فتراه يعرف مبلغ حقارة الفرد وصغره فى الكون الهائل العظيم ، كما تراه يندهش أمام تبجح أولئك الماديين المحدودى العقول . لكن اندهاشه هذا لا يمنعه من احتقارهم لضيق أفهامهم وإن حكمت عليه ضرورات الحياة فى أحيان كثيرة بمعاشرتهم والعيش معهم .

ولم يقصر روسو علاقاته الجديدة على المارشال والدوقة دلكسمبور بل اتصل بجميع أصحابهم وأصدقائهم من الكبراء . وكان يشعر لهذه الصلة بشىء من السرور الداخلى الذى كان منبته الوضيع يكبرها فى عينه . وهذه العبارة من اعترافاته تدلك على مبلغ تجلى هذا الشعور عنده . قال : « وكنت أستقبل فى هذه الشرفة مسيو ومدام دلكسمبور ودوق فليرى والبرنس دتنجرى ومركيزا ومنتيير ودوقة مومرنسى ودوقة بوفليه والكونتيس دفالنتوا والكونتس دبوفليه وأشخاصاً غيرهم من أهل هذا المقام ، وقد كانوا لا يأبون أن يحجوا عن طريق مرتفع متعب من القصر إلى مونلوى » . وكان لا يفتأ يملق دوق لكسمبور لعلمه أن الفضل فى نواله هذا الشرف العظيم راجع إليه . وهذه بعض عباراته إليه : « لقد كنت يا سيدى المارشال أكره الكبراء قبل معرفتى لك . وإنى لأشد كراهية لهم من يوم علمتنى كم هو سهل عليهم أن يجعلوا أنفسهم موضع كل محبة وتجلة » .

فى ذلك الوقت الذى أترع فيه بأنواع الهناء عرف مدام دفردان . وعلى الرغم من أنه كان فى ظروف لا تسمح له بالتعلق بها ، فإنها اتصلت به أشد الاتصال مغضية عن خطاباته القاسية التى كان يرسل بها إليها . على أن علاقتهما لم تزد على حد المعرفة فى ذلك الحين ، ولذلك نتركها للكلام عنها فى الوقت الذى تركت فيه غير قليل من الأثر فى نفس روسو .

ولما تم إصلاح بيته بمونلوى عاد إليه مع الاحتفاظ بالغرف التى كان يقطنها فى القصر الصغير . وجعل يتردد على هذه الغرف منفرداً أحياناً ، ومع تريز أخرى يتناولان فيها لقمة العصر ؛ فإذا قابل مدام دلكسمبور قضى معظم وقته فى إتمام

قراءة الهلويز وهى به معجبة وبروايتـه مجنونة . فلما أتمها خشى أن يقع فى أغلاطه وقلة ذوقه فى الكلام فبدأ قراءة كتابه عن التربية – أميل – ومع أن الدوقة لم تظهر سآمة لسماعه فإنها لم تظهر من السرور به ما كانت تظهر لدى سماع الرواية . وذلك أمر طبيعى عند معظم الناس وبالأخص عند السيدات . فإن سماع خطابات الحب المتبادل وتوقع حوادثه أكثر تشويقاً من سماع الكلام الجدى فى مسألة هامة كالتربية . مع ذلك فقد أخذ روسو على الدوقة عدم إعجابها وظن أنها بدأت تمل صحبته وكتب إليها بعد سفرها بعض خطابات مملوءة بالعتاب المر .

على أن الدوقة لم تتغير على روسو حينئذ ولا تغيرت عليه بعده وإنما هو تجسيم الخيال وفعل مرضه النفسى ، هو الذى أدخل هذا الزعم إلى وهمه . بل لقد دفعها اهتمامها بروسو أن رأت أن من الخطأ طبع كتاب التربية فى هولاندا دون أن يطبع فى الوقت عينه فى فرنسا . وكان هو على غير هذا الرأى لأن بعض المبادئ التى قررها فى « الأميل » وبالأخص مبدأه عن حرية العقيدة والديانة الطبيعية – مما سنتكلم عنه عند الكلام على كتاب التربية – قد تصادم الرأى السائد المقرر لدى الحكومة فى ذلك الحين . ولما لم تكن حرية إبداء الرأى معترفاً بها يومئذ فقد كان من المحتمل أن يقبض على طابع الكتاب وعلى روسو نفسه . لكن هذه المخاوف التى حققها للمستقبل لم ترد الدوقة عن رأيهـــا الذى أيدها فيـــه المسيو مالرب . والمسيو مالرب كما يعلم القارئ عالم مسموع الكلمة . فلم يكن من روسو إلا أن أذعن لرأيهما وسلمهما نسخة الكتاب الخطية يتصرفان فى طبعها كما يشاءان .

ولا يعجب القارئ من مخاوف روسو فى هذا الباب . فقد كان كل كاتب معرضاً للنفى وللاعتقال فى الباستيل إذا نشر أى عبارة يشتم منها التعرض لمبدأ ثابت أو الطعن على شخص ذى مركز فى الحكومة أو على رجل أو امرأة من ذوى السلطة فى البلاط .

ولا أقرب من مثل يضربه روسو نفسه ، فقد طعن القسيس مورليه على مدام دوبك فى رواية نشرها فلم يكن بأسرع من أن اعتقل فى الباستيل وأحوج الأمر لخروجه منه توسط ديدرو لدى روسو وروسو لدى مدام دلكسمبور ورجاؤها هى الوزير سان فلورنتان وتوسط هذا الأخير لدى زملائه ومن بيدهم أزمة الحكومة من الرجال والسيدات . وكأن هذا العصر كان فى حالة حرب مستمرة كالتى

أثقلت عاتق العالم من سنة ١٩١٤ ومنعت على كل مفكر حرية الفكر وعلى كل كاتب حرية الرأى والقول .

وفيما هم جميعا فى اهتمامهم بترتيب طبع كتاب التربية ظهرت رواية الهلويز فى أواخر سنة ١٧٦٠ وأوائل سنة ١٧٦١ والناس جميعاً أشد ما يكونون تشوقاً لها لما نشرته عنها مدام دلكسمبور فى البلاط ومدام دودتو فى باريس . وما لبثت أن ظهرت حتى تناولتها الأيدى وأعجب بها الناس أيما إعجاب وصادفت أعظم النجاح . لكن بعض حساد روسو لم يمتنعوا عن الطعن عليها . وحرض فولتير المركيز دى زيمين أحد المحيطين به فكتب أربعة خطابات ضدها . ولكن نجاحها كان حاسماً وتاماً بحيث سخر الناس من هذه الخطابات ومن غيرها ولم يعيروها التفاتا .

وفى هذا الوقت أيضا ظهرت رسالة من قلم روسو بعنوان (السلام الدائم) رد عليها فولتير رداً يعتبره روسو سخيفا مضحكاً .

يقول روسو إنه فى هذا الظرف الذى علا فيه نجمه وضحك له فيه طالع السعد بدأت مدام دلكسمبور تمله وتقصيه ، ويعزو ذلك إلى تقرب بعض معارفه منها ونوالهم الزلفى لديها وانتقاصهم منه عندها . على أن مراسلات الدوقة تدلنا قاطع الدلالة على أنها كانت له كما كانت من قبل تعمل لرضاه وتسكن برقيق قولها غضبه وتنظر فى مصالحه بقدر ما تستطيع . أما المظاهر التى يشكو منها روسو كعدم الاحتفاء به كسابق عادتها وعدم الاهتمام بأن يكون دائماً إلى جانبها على المائدة والاتجاه لغيره من الزوار فلم يكن إلا أثراً طبيعيًّا من آثار طول العشرة ونتيجة للأغلاط التى كان روسو لا ينفك يقع فيها الوقت بعد الوقت تجاه الدوقة . صحيح أن كثيراً من هذه الأغلاط بل كلها كانت غير مقصودة من جانب روسو بل لقد كان يرمى فى بعضها لإرضائها فينقلب الأمر عليه . ولكن ما عرفه القارئ من صفات الدوقة وأخلاقها يجعله يرى أنها كانت تود فى عظمتها لو تصلح هذا الأخرق ولو بإظهار شىء من الجفاء له .

ومن بين الأغلاط التى ارتكبها روسو غلطة مضحكة . ذلك أنه كان له كلب اسمه (دوق) . فلما نزل بين أظهر اللكسمبور رأى من اللياقة أن يغير اسم الكلب فيجعله (ترك) . وفيما هم على المائدة يوماً سأله أحد الحاضرين على سبيل السخرية عن سبب تغييره لاسم كلبه فكان جوابه : حتى لا يكون له مثل لقب

المارشال . وكان فى تفسيره هذا أكثر خرقا مما لو ترك للكلب اسمه الأول من غير تغيير .

ولما جسم الوهم لروسو أن الدوقة بدأت تتغير عليه فكر فى تركها وترك مونلوى والانقطاع عن الأدب والانزواء فى الأرياف . لكن ماليته كانت مضعضعة فى ذلك الحين ولا تسمح له بمثل هذه الحركة . ولم يكن قد أفاد شيئاً بعد من كتابه الأميل . فأرسل بكتابه (العقد الاجتماعى) إلى الناشر (رى) فى أمستردام وقبض فى مقابله ثلاثة آلاف فرنك . وقام الناشر المذكور بطبع الكتاب بسرعة حتى ظهر قبل أن يظهر كتاب التربية سواء فى فرنسا أو فى هولاندا بشهرين . ثم ظهر كتاب التربية أخيراً وكان ظهوره بدء المصائب التى انتزعت روسو من طمأنينته وأرسلته يجوب الأقطار والممالك بقية عمره وعجلت سير مرضه حتى أوقفته على حافة الجنون إن لم تكن دفعت به إلى دركاته .

ظهر كتاب التربية فلم يقابله الناس بالضجة التى قابلوا بها الهلويز بل قابلوه بشىء من التخوف والمهابة . وإن روسو لينتظر الأثر الذى سيحدثه كتابه ويسأل معارفه وأصدقاءه عن رأيهم ورأى الناس فيه إذ بدأ يصل إلى سمعه أن فى نية الحكومة مصادرته والقبض على مؤلفه . فلم يأبه للخبر بادئ الأمر وصار يضحك من كل من ينقله إليه ، وكان أشد ما يكون استغراباً حين قال له صديق من أصدقائه إنه قرأ الكتاب وأعجب به ولكنه يرجوه ألا ينقل ذلك عنه . وما زال فى سكينته مطمئناً لما رأى عليه مدام دلكسمبور من الطمأنينة حتى إذا كان فى بعض الليالى إذ أقبل عليه (لاروش) من قبل المارشال وأخبره أنه تقرر القبض عليه فى صباح الغد وأن لا وسيلة إلا الهرب . فذهب من فوره وقابل الدوقة التى كانت تنتظره فى سريرها . وبينا يتحدثان أقبلت عليهما مدام دبوفليه قادمة من باريس ، فجعلوا يفكرون فى الطريق الذى يختارونه . والحقيقة أن القبض على روسو لم يكن بالشىء الخطير لذاته . ولكن علاقة دوقة لكسمبور والمسيو مالرب بطبع الكتاب وإمكان ذكر اسمهما على لسان روسو فى أثناء التحقيق وما قد يتركه ذلك من الأثر السيئ ضدهما فى البلاط وعند الملك ، وما قد تهيجه الحادثة من الرأى العام كل ذلك هو الذى جعلهم جميعاً يجمعون على فكرة ترك روسو لفرنسا . وقد ظهر هو فى هذه الفرصة مثال الإقدام والتضحية فلم يتردد فى قبول الرأى الذى عرضوه عليه .

ودارت المناقشة حول المكان الذى يرتحل إليه . ورفض البقاء مختبئاً إلى أن يمر من الوقت ما يكفى للتفكير كما رفض الالتجاء إلى إنجلترا وانتهى به العزم على الذهاب إلى سويسرا . وفى تلك الساعة العصيبة قام الدوق والدوقة ومدام دبوفليه وأصحابه فى القصر بوداعه . ثم جاءت تريزلفاسير ورجته أن تكون معه فأفهمها أن ذلك لا ينفعه ولا ينفعها ولم يفض لها بالمكان الذى اعتزم الارتحال إليه . وظل إلى ما بعد الظهر يرتب كتبه وأوراقه ثم ذهب فى صحبة الدوق إلى العربة التى كانت فى انتظاره لتقله إلى حيث يشاء .

ولقد كان أصدقاؤه وأعداؤه جميعاً يودون أن يخرج من المملكة من غير أن يقبض عليه حتى لا يقيم ذلك على الحكومة قيامة العالم . ولا أدل على ذلك من أن برلمان باريس أصدر قرار القبض عليه فى يوم ٩ يونية سنة ١٧٦٢ وقرر أن يكون القبض فى الساعة السابعة من صباح اليوم التالى . وقد رأينا روسو يقضى فى التوديع وفى ترتيب أوراقه إلى ما بعد ظهر ذلك اليوم ثم لم يحضر أحد . فلما ركب عربته وسار التقى ولا يزال على مقربة من القصر بالمحضرين المكلفين بالقبض عليه ، فلما رأوه ابتسموا ولم يقفوا وساروا فى طريقهم ومر بعد ذلك فى شوارع باريس ورآه الناس طرّا وسلم عليه معارفه ومع ذلك لم يتعرض له أحد . فلما خرج من فرنسا نزل فى ايفردن من أعمال مقاطعة برن بسويسرا عند صديقه المسيو روجن برغم تصميمه الأول الذى كان يريد معه الذهاب إلى مسقط رأسه جنيف . وإنه فى هذه الفرصة لنعما فعل . فقد أصدرت حكومة جنيف قراراً كالذى أصدرته حكومة باريس بتاريخ ١٨ يونية سنة ١٧٦٢ . وقد صادره أيضاً السوربون وطعن عليه رئيس كهنة باريس ، وطعنه قرار من البابا . وقضى عليه أمر صادر من حكومة هولاندا . على أنه لم يهتم فى ذلك كله إلا بمطاعن رئيس كهنة باريس وبقرار حكومة جنيف . فرد على الأول بخطابه إلى كريستوف دبومون وعلى الثانى بخطابات الجبل الخالدة .

ويحسب كثير من أصدقاء روسو أن يد فولتير كانت ذات أثر فى قرار حكومة جنيف . لكن المسيو فاجيه لا يعتقد صحة هذه الرواية بسبب تصرف فولتير فى هذا الظرف حيث دعا روسو للإقامة معه فى الدليس . صحيح أن روسو رفض لأنه يعلم أن فولتير ليس رجل ثقة يصح أن يعتمد عليه إنسان .

ولكن الحقيقة أن فولتير كان يريد بحماية روسو قطع لسانه والاستعلاء عليه فجاء رفض روسو جواباً قاطعاً طريق ما أراد فولتير من عمله .

فلما كتب روسو خطابات الجبل عرّض فيها بفولتير فنشبت بذلك بينهما عداوة لم تهدأ ثائرتها فيما بعد يوماً من الأيام ، بل ظلا يتبادلان الردود حتى آخر حياتهما الكتابية .

على أن هذا الفصل ليس موضع التفصيل فى ذلك . وسنذكر فى هذا الكتاب ما نريد ذكره منه بعد شرح نظريات كتاب التربية حتى يكون القارئ على بينة مما يذكر أمامه ، ولكنا نريد أن نختم هذا الفصل بالكلام فى مسألتين . الأولى قرار برلمان باريس بالقبض على روسو والسبب الذى بنى عليه . والثانية علاقة روسو بمدام دلكسمبور بقية حياته .

يعلم القارئ أن مما يمتاز به القرن الثامن عشر عن القرن الذى قبله نزعته إلى النقد الدينى وإلى الإلحاد . وأن طائفة كثيرة العدد على رأسها فولتير كانت تتعرض للعقائد بأكثر مما تعرّض لها به روسو وتهكم عليها وعلى رجال الدين أشد التهكم . مع ذلك فلم يتعرض لهذه الجماعة أحد ولم يصدر ضد واحد منهم قرار كالذى صدر ضد روسو . فما هى الحكمة فى ذلك وما هو السبب ؟

السبب الذى ذكره البرلمان فى قراره هو أن روسو نشر أفكاراً تخالف العقيدة المحترمة فى المملكة ووضع اسمه على الكتاب الذى نشر تلك الأفكار فيه . ولو أنه لم يضع اسمه لما تعرّض له أحد ولما مس بسوء . بل لقد كان فى وسعه إذا تدخل رجال القانون مع ذلك فى الأمر أن ينكر الكتاب وكان ذلك فى عرف أهل العصر كافياً لعدم مؤاخذته . وهذا ما كان يفعله فولتير . تصدر كتبه من غير أن يكون عليها اسمه ولا يأبى أن ينكرها إذا هو سئل عنها مهما علم الناس طرّاً أنه كاتبها ومهما افتخر بذلك فى مجالسه الخاصة وفى كل مجلس لا يكون للقانون فيه مباشرة سلطان . فمصارحة روسو بأن الأفكار أفكاره واحتماله تبعتها وذكره اسمه كمؤلف الكتاب من جهة وما يجب على الحكومة من المحافظة على العقائد السائدة من أن يمسها أحد أو أن يعرض لها إنسان من الجهة الأخرى ؛ ذلك هو ما دعا البرلمان لإصدار قراره . وقد رأينا أن الناس جميعاً وأعضاء البرلمان من بينهم كانوا يودون لو لم ينفذ القرار وأنهم جميعاً سرّوا بفرار روسو لأن القبض عليه كان

من شأنه أن يهيج بعض الخواطر ويضطر بعض الأشخاص لرفض ذلك النفاق الدائم الذى كانوا فيه بين إرضاء ضمائرهم وإرضاء الحكومة .

وبعد أن أقام روسو زمناً عند المسيو روجن فى أيفردن قررت حكومة مقاطعة برن إخراجه من أرضها برغم معارضة عميد أيفردن ورغبته فى حمايته . وهذا القرار وقرار حكومة جنيف وقرار السوربون وباقى القرارات لم تكن لتصدر لو أن روسو فضل بدل الفرار محافظة على سمعة مدام دلكسمبور والمسيو مالرب أن يعارض فى الأمر لأن أيدىَ قوية كانت ستتدخل يومئذ لمعونته فلا يبقى فى الباستيل إلا أسبوعاً أو أسبوعين ثم يخرج خروج الظافر ليقيم من بعد ذلك فى عاصمة فرنسا ملكاً على رأس الكتّاب والأدباء .

ولكن هكذا شاءت الأقدار وحكمت على روسو أن يحتفظ بمصلحة أصدقائه وحمايته أكثر من عنايته بمصلحته الذاتية فتنهال عليه لذلك من كل جانب أنواع السخط ويقوم فى وجهه رجال الحكومات والكتاب يصوبون إليه أمر سهام اللوم والتقريع ويقضون عليه أن يقضى بقية حياته هائماً على وجهه لا يعرف لنفسه قراراً .

فلما ترك أيفردن إلى موتييه ترافير على مقربة من نيوشاتل تجددت المكاتبة بينه وبين مدام دلكسمبور التى احتفظت له بالجميل طول حياتها . لكن روسو بدأ يشك فى ولائها هى الأخرى حتى كتب إليها فى سنة ١٨٦٤ بمناسبة وفاة الدوق زوجها خطاب تعزية يقول فيه : « عبثاً أحارب نفسى لأمنع عنك مضايقة تعيس بائس . فقد بلغ بى الألم الذى يحز فى قلبى حدًا لا يعرف معه تحفظا أو ستراً . وما كنت لأكتب إليك يا سيدتى الدوقة لو أنى عرفت شخصا أعز منك عند الصديق الكريم الذى فقدته . ولكن من لى بإنسان أبسط إليه ألمى لذلك المصاب غير من يحس به أكثر من كل من سواه . ثم كيف يستطيع أولئك الذين أحبهم هو أن يبقوا منقسمين متباعدين . وهلا يجدر بقلوبنا أن تجتمع لتبكيه . فإذا لم يبق لى من مقام فى قلبك فليكن لديك بعض الاهتمام بما أقاسى من المصائب لأنه كان يهتم لها . . على أنى إنما أغر نفسى بما أقول . فلقد كان تركَ الاهتمام بى ونسيى كما نَسْيِنِى فأى ذنب جنيت إلا أنى أحببتكما حباً جمّ فأعددت لنفسى بذلك أنواع الأسف . لقد تمتعت أنت بأرق محبته حتى آخر لحظة من حياته .

والموت وحده هو الذى استطاع أن يقتلع منه هذه المحبة . أما أنا فقد فقدتكما جميعاً فى ريعان الحياة فأنا لذلك أجدر منك بالشكوى وبالمرحمة » . فردت الدوقة على هذه التهم الموجهة فى ظرف غير ملائم بأرق العبارات وأكثرها تواضعاً قالت : كنت أود أن أخلط دموعى بدموعك وقد حسبت أن ليس لى من عزاء عن مصابى إلا فيك فإذا بى مضطرة بدلا من ذلك أن أبرئ نفسى أمامك ، وأكثر من ذلك أهمية وأشد قسوة أن أبرئ مسيو دلكسمبور الذى أحبك واحترمك ولم يعتبر لنفسه فى العالم صديقاً أعز منك ؛ فلقد مرض مدى أربعة أشهر مرضاً لم يحسب أن الموت يعقبه ولكنه منعه عن الكتابة : وكثيراً ما كان يحادثنى عنك ويقول إنك لو كنت فى مومرنسى لجئت للإقامة هنا (فى باريس) . وقد قرأنا له خطابك الأخير فلم يترك عبارة رقيقة إلا قالها عنك . فأنصح لك التوبة عن ظلامة أسأت بها لذكراه ، ولئن كان موته فجأة قد منع عليه أن يفكر فى أى شىء فى ساعاته الأخيرة فإنى أكرر لك أنه أحبك وأحبك من كل قلبه حتى لكان بعدك عن هذه الديار من أشق الأشياء وأشدها على نفسه . فلم يبق طويلا بعد سفرك حتى اعتلت صحته وحتى حل به المرض ، ولست أطيق أن أدخل فى تفصيلات مرضه الأليمة التى يخبرك عنها لاروش متى شئت . تصور يا سيدى أنى لم أتركه حتى آخر أنفاسه ثم لا أحب إلا أن أسكن الغرفة التى مات فيها ، وإنى أشكرك على ما تقوله عنه فى خطاب مطبوع فذلك موجز ومؤثر ، أما عن تبرئة نفسى فإنك لا تنكر أنى أنا التى كتبت إليك أخيراً وأنك لم تجبنى وقد مضى على ذلك زمن طويل . أما قلبى فلا شك أكيد فى محبته رقيق فى ولائه . فبالله لا ترهقنى وأنا فى مصابى الأليم باطراحى وراء ظهرك واعلم أن لك من الحب دائماً أرق ما فى قلبى . . » وقد رد روسو على هذا الخطاب بشىء من السكينة والطمأنينة . والحقيقة أن مدام دلكسمبور لم تنقلب عليه يوماً كما انقلب غيرها ولا أهملته بل كان هو كأنه ينتهز الفرص لإيجاد المتاعب آملا أن يزداد عندها بذلك إعزازاً ومحبة .

وبقيت علاقاتها به كأحسن ما يكون الود والعطف والإخلاص حتى سنة ١٧٧٠ وإن كانت قد فترت بعض الشىء من أيام انقطاع روسو عن فرنسا على أن الفتور لم يبلغ بها أبداً حد النسيان ، بل لقد طالما شملته الدوقة بعنايتها وحمايتها فى سويسرا وإنجلترا وفرنسا . أما بعد سنة ١٧٧٠ فقد نسيته تمام النسيان أو كادت

لكثرة ما طعن فى ولائها . وظل بعد ذلك فى تجوال وارتحال بقية حياته .

أجملنا فى هذا الفصل أهم أزمنة حياة روسو : ففيه ظهرت كل كتبه القيمة التى خلدت على الزمن عظمته وأثبتت للعالم قوته . وسنعرض فى الفصول الآتية – والتى سيشملها الجزء الثانى من هذا الكتاب – ما تحتويه هذه الكتب وغيرها من صور وأفكار كما نجىء للقارئ على ما بقى من تاريخ حياة رجل بدأ وضيعاً بائساً ومات فقيراً تعيساً وقضى حياته مريضاً محزوناً ولكنه ترك للعالم ثروة فكرية لا يزال العالم وسيبقى يتنعم على حسابها عصوراً طوالا .